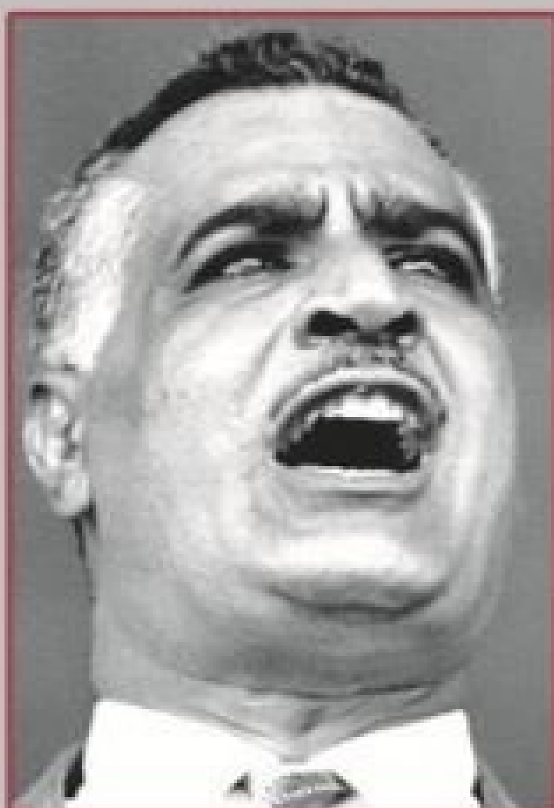
دار العلوم للنشر - القاهرة
Dar Al Oloum Publishing • CAIRO

الخديعة الناصرية



2009

صافيناز كاظم

الخديعة الناصرية

شهادة مواطنة مصرية على سنوات عاشتها

بقلم

صافيناز كاظم

كاظم/ صافيناز
الخديعة الناصرية/ تأليف : صافيناز كاظم
ط1ـ القاهرة: دار العلوم للنشر والتوزيع ، 2009
80ص، 12سم .
تدمك : 3ـ218ـ380ـ977
1 – العنوان
أـ
رقم الإيداع : 1946 / 2009

الطبعة الأولى: 1430هـ/ 2009م

الناشر
دار العلوم للنشر والتوزيع - القاهرة
هاتف : 25761400(00202) فاكس : 25799907(00202)
الموقع الإلكتروني: www.dareloloom.com
البريد الإلكتروني : daralaloom@hotmail.com
daralaloom2002@yahoo.com

المقدمة

مُقَدِّمَة

لا شك أن السنوات الست عشرة التي تولى جمال عبد الناصر فيها مسئولية الانفراد الكامل بحكم مصر ـ (منذ 1954 إلى 1970) ـ لا شك أنها سنوات ستظل تخضع لكثير من البحث والتأمل، في محاولات تحليل إيجابياتها وسلبياتها. . ومع هذا فإن المواطن الذي عاش وعايش هذه الفترة تحت ظل حكم عبد الناصر، ومازال يعايش حتى الآن الطقس السياسي الذي يخضع تيارات الساحة لأحكامه يستطيع أن يلقي الضوء ـ ولو من وجهة نظره ـ على ما دار ويدور في وعلى الساحة المصرية.

* * *

عندما قامت حركة 23/ 7/ 1952م لم تكن مصر أرضًا نائمة أيقظتها هذه الحركة . . بل على النقيض: كانت مصر حبلى بالثورة وبالتمرد معًا، وكانت في مرحلتها الأخيرة الناضجة المهيأة للوضع والميلاد للانطلاق إلى فجر عصر جديد . . وعندما سبقت حركة الضباط ـ عام 1952م ـ كل التكتلات الوطنية الأخرى إلى التمرد ـ وليس إلى الثورة ـ على الأوضاع الفاسدة، وعلى الوضعية السياسية التي انتهت شرعيتها في أذهان الجماهير حتى قبل سقوطها، التف حولها الشعب مسقطًا عليها كل أحلامه الثورية التي تشوق إليها طويلاً خاصة بعد مرارة الهزيمة في فلسطين عام 1948م.

وفي غمرة الحماس الشعبي الذي تبنى حركة الضباط ولقبها بالثورة ـ لأنه كان يريدها كذلك ـ لم يكن بوسع أحد أن يقف ليراقب بدقة موقف هذه الحركة الجديدة . . بل على العكس وافق المجلس الشعبي على أن يقوم ـ بوعي منه أو بلا وعي ـ بدور "المبرر" لكل الأخطاء التي ارتكبتها هذه الحركة منذ الشهر الأول لتوليها الزمام في مصر . . هذه الأخطاء التي وصلت في حالات إلى درجة الخطأ الفادح، وفي حالات أخرى إلى درجة الجريمة النكراء، ثم بلغت في نهاية جولتها درجة خيانة الشعب وخيانة مبادئه وأهدافه وقضاياه: (الإسلام، تحرير المواطن من الجهل والفقر والمرض، تحرير فلسطين بإعادتها أرضًا ودولة عربية إسلامية بالقضاء التام على الكيان الصهيوني).

لم يقف الشعب ليناقش مفاهيم ومدلولات شعار "الثورة البيضاء" ـ الذي أطلقه

الضباط على حركتهم ـ ليتساءل ويقارن " بيضاء " على من؟ و " حمراء " على من؟ و " سوداء " على من؟ فقد خلع الملك وتم الإبقاء على ولي عهده الأمير أحمد فؤاد، وأعطى الملك حق " الموافقة " على الثورة بأن تقدم الضباط للملك بطلب التنازل عن العرش وترك البلاد .

وجاء بيان الإذاعة يقول : " . . . وقد تفضل جلالته فوافق على المطلبين " ! .

وتم رحيل الملك في 26/ 7/ 1952م عن مصر في يخته المحروسة مودعًا بكامل الاحترام والحقوق الملكية الواجبة له، ولم يمس كادر ملكي من أتباعه بشعرة أذى واحدة . . وكان هذا هو الجانب الأبيض السلمي لهذه الحركة . . لأنه وبعد أسبوعين فقط من تطبيق هذا السلوك المهذب " الحضاري ! " مع ملك مدان هو ونظامه بعديد من الجرائم ضد شعب مصر ومصالحه، توافق أن قامت في مصانع كفر الدوار للغزل والنسيج ـ يوم 10/ 8/ 1952 أو 12/ 8/ 1952م إذا لم تخنّي الذاكرة ـ مظاهرة تمرد ضد الإدارة الرجعية التي لم يكن قد تم تغييرها بعد من قبل حركة الجيش . . وكانت هذه الظاهرة التي قام بها عمال المصنع قد رفعت شعارات الحركة الجديدة التي جاءت ـ كما قيل في الإذاعة ـ ضد الفساد والاستغلال، وهتف العمال بحياة القائد العام وفتيته الثوار، وكانوا قد تصوروا أن هذه الحركة لا بد متبنية لمطالبهم مساندة لموقفهم ضد الإدارة الرجعية ـ ولكن العجيب حدث : إذ كشرت الحركة الجديدة صاحبة شعار " الثورة البيضاء " عن أنيابها وتحالفت مع الإدارة الرجعية وتم قمع مظاهرة العمال دون أية محاولة لتفهمها، ودراسة بواعثها .

وأقيمت فوراً المحكمة العسكرية لمحاكمة (العصاة) : وتم تقديم ما يربو على 60 متهمًا وتم تحديد زعمائهم باتهام العامل " خميس ـ 18 سنة " والخفير " البقري ـ 19.5 سنة " ـ وهو أب يعول خمسة أطفال وأم معدمة تبيع الفجل وتكسب القليل في

اليوم! ـ وكان من بين المقدمين للمحاكمة : أطفال في سن العاشرة والحادية عشرة " شاءت إنسانية المحكمة وعدالتها أن تحكم ببراءتهم رغم ثبوت جريمة سرقة بعض أثواب القماش عليهم " . . كما جاء في تقرير أحكام قضية عمال كفر الدوار الذي صدر عن إدارة القوات المسلحة 8/ 1952م برجاء الرجوع إليه لأنه وثيقة كاملة دامغة تساعدنا في فهم الطبيعة الفاشستية لهؤلاء الضباط التي عبرت عن نواياها منذ الشهر الأول لقيام هذه الحركة .

***

وفي أقل من أربعة أيام تمت محاكمة هذا العدد الكبير من المتهمين . وصدرت الأحكام بإعدام خميس والبقري والأشغال الشاقة المؤبدة وسنوات سجن أخرى لبقية المتهمين . وتم تجميع عمال المصنع كلهم في النادي الرياضي وأجلسوا حلقة كبيرة على الأرض حيث أذيعت فيهم الأحكام المرعبة خلال مكبرات الصوت وسط طقس من الذهول الكامل .

ويقول شهود الواقعة من الصحفيين الذين أثبتوا شهادتهم في تحقيقات صحفية نشرت بالمصور وآخر ساعة وغيرها من الصحف في شهر أغسطس 1952م أن المتهم " البقري " وزميله " خميس " استمرا يصرخان في المحكمة : " يا عالم . . . يا هوه . . مش معقول كده . . . هاتوا لنا محامي على حسابنا حتى . . . ده احنا هتفنا بحياة القائد العام . . . ده احنا فرحنا بالثورة المباركة . . . مش معقول كده . . .) .

وبناءً على هذه الصرخات سألت المحكمة الجلوس :

ـ حد فيكم محامي يقبل الدفاع عنهم؟

فتقدم موسى صبري المحامي (الصحفي الآن) وقال : أنا محامٍ .

وسمح له بالجلوس مع المتهمين دقائق . وبعدها قدم مرافعة شكلية قصيرة ثبتت التهمة على الشهيدين .

وتم تنفيذ الإعدام في البقري وخميس يوم 17/ 8/ 1952م، وسجلت الصحافة وقتها اللحظات الأخيرة في حياة خميس والبقري[1]، وقد وصفهما محرر آخر ساعة صلاح هلال بأنهما شيوعيان والثابت أنهما لم يكونا منتمين إلى أي فكر سياسي، ولم تكن المظاهرة سوى تعبير وطني عام عن الفرح بقدوم عهد جديد، وفرصة للتنفيس عن بغضهم للإدارة الرجعية الظالمة . . والطريف أن الحزب الشيوعي المصري تنصل وقتها من انتمائهما وأنكره، أما الآن ـ وبعد أن أعيدت ذكرى الظلم الذي وقع على خميس وبقري ـ فيطيب للماركسيين المصريين أن ينوهوا ويفتخروا ويؤكدوا أن خميس وبقري كانا بالفعل من الشيوعيين، وهذا غير صحيح ولم يكن أبداً .

في نفس الفترة حدث تمرد حقيقي بالصعيد ضد مصالح الشعب وضد حركة 1952م بصفتها حركة لصالح الشعب . قام بهذا التمرد المسلح إقطاعي اسمه عدلي لملوم، لم يكفّ هو وأمه عن كيل السباب أثناء محاكمته ضد الثورة وضد الفلاحين، وحكمت عليه المحكمة بالمؤبد ثم خففته فيما بعد[2] حتى تفسح له مكانًا من رحمة شعارها "الثورة البيضاء" هذا الشعار الذي شملت به الملك من قبل، واتسع ليضم كل الفاسدين المفسدين من سفاحي الشعب المصري حقًا : من وزراء ورجالات وإقطاعي "العهد البائد" والذي ضاق وعجز تمامًا عن استيعاب ورحمة ابنين معدمين مخلصين من أبناء الشعب المستضعف الذي تدين حركة الضباط ـ أول ما تدين ـ لتضحياتهم في سبيل نجاحها واستمرارها .

---

(1) انظر مجلتي المصور وآخر ساعة أعداد شهر 8/ 1952م.

(2) تجدر الإشارة هنا إلى الإفراج الصحي الذي حصل عليه عدلي لملوم بعد ذلك كما تجدر الإشارة إلى أن محاكمته كانت حافلة بأقطاب المحامين.

هذه البداية لحركة 23/ 7/ 1952م ننظر لها الآن ونستطيع أن نستشف فوراً: خلوها الكامل من فكر ووعي يعطي لها منطلقًا مبدئيًا يحدد لخطواتها الطريق الذي تصعده متدرجة نحو غاية محددة، أو رؤية حضارية أو فلسفية إنسانية تحسم لها المواقف وتحلل لها الظواهر بحيث يمكن لها أن تفهم الفوارق الواضحة بين: تمرد للعمال إيجابي، كمثل الذي شارك فيه الشهيدان "خميس" و"بقري" وبين تمرد سلبي لإقطاعي مثل عدلي لملوم.. بحيث لا تصل إلى قرار بأن تقتل أبناء الشعب وتحافظ على حياة أعدائه وتستمر في ذلك حتى الآن.

منذ هذا الخلط الواضح في مبدئية حركة الضباط هذه ـ استمرت هذه الحركة في اتخاذ سياسة: ذبح كل الاحتمالات الواعدة التي يمكن أن تشرئب من بين صفوف الشعب المصري لتحاسبها أو تناقشها أو تفضحها وتقول لها: مكانك! لقد خدعنا فيك، ولست أنت أمل مصر، ولا صيغة خلاصها غير مفرقة في هذه السياسة بين الحركة الإسلامية، وعلى رأسها "الإخوان المسلمون"، أو الحركة العلمانية اللا إسلامية بتياراتها المختلفة من شيوعيين أو يساريين أو اشتراكيين أو حتى بين صفوف الاتحاد الاشتراكي فيما بعد! هذه السياسة التي أفقدتنا ـ بين الكثير الذي فقدناه ـ مفكرين عبقريين من أعظم ما أخرجته التربة المصرية لمصر وللوطن الإسلامي وللعالم اجمع، هما الشهيد عبد القادر عودة (1955م)، والشهيد سيد قطب (1966م) حين نفذت فيها "الثورة البيضاء" حكم الإعدام ظلمًا وجوراً واعتسافًا، ولقد مارس عبد الناصر هذا النهج، وبلوره وأجاده منذ أن انفرد بالسلطة عام 1954م معتمداً معه سياسة سرابية: تغذي الأحلام، دون أن يجد أي حلم شعبي سبيله على أرض الواقع، وتصنع منه رمز الفارس الآسر القوي أو "الجدع" مستقطبة أحلام الشعب العربي في مصر وخارجها، للتمركز في شخصه مكررة على مسامعه السؤال الشرير: "من البديل؟" والبدائل العظيمة تسحق دوريًا بالمشانق والتعذيب والاعتقالات التي

لا تنتهي ، ولقد بلغ اتجاه التمركز في شخص عبد الناصر أوجه عام 1956م عند إصداره قراره تأميم قناة السويس الذي صاغه بحيث يبدو هو من ورائه "الشجيع" الذي يصفع أمريكا في مقابل صفعة من أمريكا حين رفض البنك الدولي تمويل مشروع السد العالي فظهر قرار التأميم أمام الشعب العربي الفرحان كضربة شجاعة تثأر لرفض تمويل السد العالي : ضربة شجاعة لا يقدر عليها إلا "الجدع" عبد الناصر ، وتاهت في الصخب حقيقة أن تأميم قناة السويس حق من حقوق الشعب المصري[(3)] كان يجب أن يتم سواء قبل البنك الدولي أم رفض تمويل السد العالي أو غيره ، وأن هذا الحق يجب أن يصدر بقرار هو جزء من خطة منهجية في برنامج الثورة ويصدر باسم مصر واسم ثورتها وليس باسم شخص محدد يملي إرادته على مصر بدلاً من أن تملي مصر عليه إرادتها .

ومع ذلك فسوف نقبل هذا القرار ـ أيًا كان الأسلوب الذي صدر به ـ كان مكسبًا للجماهير العربية وكانت إدانة الأمم المتحدة للعدوان الثلاثي الذي حدث أثره ، كانت هذه الإدانة من النتائج الإيجابية التي كسبتها مصر ومعنويات الشعب العربي . . لكن هذه المكاسب إن كانت قد غفرت لعبد الناصر أسلوب إعلان قرار التأميم فإنها لا تغفر له إخفاء حقيقة الوضع العسكري الذي نشأ في المنطقة أثر العدوان عن الجماهير العربية وعن الشعب المصري ـ دافع الثمن دائمًا ـ فقد تصورت الجماهير أنها انتصرت مائة في المائة ، وأن الاحتلال الأجنبي قد رحل تمامًا ولم تعلم أي شيء عن وضع مضايق تيران ، أو شرم الشيخ ، أو الموافقة السرية من عبد الناصر للسماح للسفن الإسرائيلية بالمرور عبر المياه المصرية .

واستمر الصعود المتنامي لشخص عبد الناصر كزعيم عربي ، رأت فيه الجماهير

(3) تجدر الإشارة هنا إلى أن تأميم قناة السويس تضمنه البرنامج السياسي لبعض الهيئات الشعبية مثل الإخوان المسلمين والحزب الاشتراكي (أحمد حسين) .

العربية ـ التي تجهل معظم الحقائق وتعيش بالحلم والدفع الإعلامي ـ أملها المنشود خاصة بقرار الوحدة مع سوريا عام 1958م. . هذا القرار الذي تم كذلك بقرار فردي مباغت ومفاجئ. . ومع ذلك ساندته كل القوى الحركية العربية، وتسجل سنوات 1959م، 1960م (تأميم الصحف في مصر) حتى 1961م أوج الصعود الشخص عبد الناصر مجسداً ـ بشعاراته ـ أماني وأحلام الأمة خاصة بعد أن أعلن سياسته المتجهة نحو ما أسماه: الاشتراكية العربية. . مع هذا الصعود لشخص عبد الناصر كان هناك دائمًا الهبوط لسعر الشعب المصري وقيمة الفرد فيه حيث كانت هذه السنوات نفسها سنوات بزوغ المنهج الإجرامي وتألقه لإلغاء شخصية الإنسان المصري ومحوه الذي ابتدعه عبد الناصر وسلطه هو وقنواته ليحول الشعب المصري المتكلم الساخر الفصيح إلى بجع مسحور مسلوب الإرادة لا يعرف سوى التصفيق بأجنحته الكسيرة، وسوى إخفاء الكلام كالسمك في كيس منقاره: سنوات تأسيس منهج إشاعة الذل والقمع، والإرغام والاقتلاع من الجذور وجدع الأنوف وقطع الألسنة ـ حتى ولو يقول النكتة التي لا يحيا بدونها المصري ـ وقصم الظهر والهيمنة على النفس الصاعد والهابط. سنوات تقنين المنهج البدائي الهمجي الذي عبر به المغول والتتار منهج إحراق مكتبات بكاملها بعد شنق مؤلفيها الأفذاذ حتى لا يقرأ الشعب المصري، ومن ورائه الشعب العربي الكتب التي تمد إليه طوق نجاته ـ الإسلام ـ ويغرق بدلاً منها حتى أذنيه في مؤلفات الركاكة، والسماجة، والأكاديمية المزيفة، والشقشقات والطقطقات التي ترضي الزعيم، وتخلص دائمًا إلى النتيجة بأنه: "ليس في الإمكان أبدع مما كان"، وأن الفزع الوحيد ـ الذي يجب أن يواجهه الشعب المصري ـ هو فزع احتمال غياب عبد الناصر. فمن يكون البديل لهذا الفلتة المفلوتة من دورة الزمان؟!

وبما أن لكل عملة وجهين ولكل شيء ما يريح وما لا يريح، فإن خمر السلطة

وكرباج القمع تمكنا من عزل عبد الناصر تمامًا حتى عن موقع قدميه حيث أصبح لا يرى أبعد من أنفه ، وتحت وطأة منهجه الإجرامي في تعبيد شعب مصر الذي حاول ممثلوه أن يقرروه على شعب سوريا الإقليم الشمالي لجمهورية عبد الناصر العربية المتحدة كسرت الوحدة بين سوريا ومصر في 1961م، وكانت الهزيمة الأولى الواضحة لعبد الناصر ومع ذلك لم يفق عبد الناصر أثر هذه الرجة العنيفة لحكمه بل على العكس استمر أعمى في أسلوبه الخطر الذي كبده ـ شخصيًا ـ في النهاية هزائم أقسى وأمر . فبدلاً من أن يراجع سياساته حتى يقف على طبيعة الأسباب التي تكالبت على الوحدة، وكبدت الجماهير العربية خيبة أمل محزنة ومرة، وقف يعلق كل الأخطاء على مشاجب خارجية متعاميًا تمامًا عن أسباب مسئوليته فيها مباشرة معتمداً على مكانة الحب الهائلة ومستغلاً لها ـ تلك المكانة ـ التي كانت تضعه في قلوب الجماهير العربية التي لا تريد لأحلامها أن تتبدد .

واحتمى عبد الناصر من هزيمته هذه ـ في انفصال سوريا عنه ـ خلف قوانين 1961 الاشتراكية التي ألهت طبولها ومزاميرها وأفراحها الناس عن رؤية الأخطاء التي تكمن في سياسة عبد الناصر الفردية السرابية ، ومنهجه القمعي ، والذي أدى مجملها فيما بعد إلى تعطيل كل هذه القوانين الاشتراكية عن فعاليتها المثمرة .

* * *

محاربة عبد الناصر
بعبد الناصر

كانت أعوام الستينيات حتى 5 يونيو 1967م هي الأعوام التي بدأ الشعب المصري يتهامس فيما بينه عن مرض مصاب به عبد الناصر يسبب الجنون . . وبالذات جنـون العظمة ، وتزايد الهمس عندما توفي الدكتور أنـور المفـتي فجـأة وكـان هـو الطبيـب الخاص لعبد الناصر الذي قيل إنه مكتشف هذا المرض عند عبد الناصر مما دفـع عبـد الناصر إلى قتله بالسم .

ولكن المراقب لم يكن يحتاج إلى تقرير من طبيب ، فلقد أعلـن عبـد الناصـر عـن جنونه بنفسه عندما أصدر عام 1965م قراراً باعتقال 18 ألف مواطن في يـوم واحـد وفي ساعة واحدة . . هي ساعة السحر . . إرهابًا للشعب .

وكانت اعتقالات 1965م قد شملت كل تيارات الحركة الإسلامية ، وعلى رأسها " الإخوان المسلمون " ، وشملت معهم كل من تاخم ولامس أو جاء ذكـره مـصادفًا لأي فرد من الحركة الإسلامية ولو كان نصرانيًا ! كانت الحملـة قاسـية ولا إنـسانية ، غاشمة وباغية ، وأصيبت مصر بالذعر حتى إن البعض أوشك علـى حـرق سـجادة صلاته وإخفاء مصحفه حتى لا يتهم ويزج به معتقلاً مع الإخوان المسلمين .

وكانت هذه الفترة ـ كذلك ـ فترة استماتة الجماهير في مـصر مـن أجـل التمـسك بالمكاسب الاشتراكية التي أتت بها قوانين 1961م . . كان الجهد الـشعبي يرمـي إلى تحويل هذه القوانين من مجرد شعارات " مزوقة " وتجارة سياسية تمـلأ قنـوات الإذاعـة والتليفزيون بالمن على الشعب بما جلبته له السلطة السياسية : كان الجهـد أن تتحـول هذه القوانين إلى واقع ثوري حقيقي ، فقد أدرك قطاع الطليعة المثقفة الثوريـة الزيـف

الذي يغلف كل الشعارات الثورية التي يطرحها عبد الناصر في خطبه وتبثها أجهزة إعلامه . لكن الطليعة الثورية كانت ـ بالرغم من إدراكها هذا الفارق الضخم بين المعلن والواقع ـ تدرك كذلك إنها مرغمة على أن تحارب عبد الناصر بعبد الناصر .

فلقد أدرك الكثيرون أن هناك رمزين من عبد الناصر :

1. **عبد الناصر**: المواثيق والقوانين الثورية الاشتراكية، والتي هي حبر على ورق .
2. **عبد الناصر**: جهاز الحكم والتنفيذ الذي يقمع كل سلوك ومبادرة ثورية، ويتصيد الثوريين حتى من بين صفوفه، الذين يريدون تنفيذ القوانين الاشتراكية . بينما يحمي ويدعم كل المخالفين والمتهربين من القوانين الاشتراكية .

وهكذا عرفت سنوات الستينيات خاصة ما بعد 1961م الهوة الفاضحة بين القول والفعل، وصار هذا موضوع التعبير الفني عند كثير من الشعراء والكتاب ومؤلفي المسرح الذين ظهروا ولمعوا في تلك السنوات الفوارة بغليان النقد، وإشارات التنبيه . لكن هذا الغليان من النقد لم يكن ليحظى من عبد الناصر "الحكم" إلا بالابتسام أحيانًا وبالجهامة في أغلب الأحيان، وكانت أحوال الابتسامة مبعثها أن "محمد حسنين هيكل" قد أفهمه أن طقس النقد إلى درجة معينة لا ضير منه بل على العكس فهو يعطي الساحة الفنية والسياسية جاذبية ثورية، ومسحة نضالية محببة مما يساعد على تنشيط "السياحة السياسية"، وزيادة الترويج العربي والمحلي لشخص عبد الناصر .

ومن هذا الإطار كون هيكل ـ بتدعيم كامل من عبد الناصر ـ في مؤسسة الأهرام ما أسماه الصحفيون في ذلك الوقت "طبقة المخصوص" من الكتاب والصحفيين، وكان أبرزهم "توفيق الحكيم، ونجيب محفوظ، ويوسف أدريس، ود. حسين فوزي، ولطفي الخولي . . إلخ" ليقودوا خط النقد "اللانقد" ويحموا تحت أجنحتهم

بعض التيارات النقدية الأكثر حدة منهم. ولكنها مع ذلك لا تمس أي عصب موجع خارج هذا المخصوص. . برزت أصوات نقدية معارضة غير ملجومة بقيد من خوف أو تحفظ فنشأ جيل كامل طليعي كتب الشعر والقصة والرواية والمسرحية وأشكال المقال السياسي المختلف، ولم يسمح لهذا الجيل بالظهور أبداً من خلال قنوات الدولة الشرعية، فاضطر هؤلاء الكتاب أن يستنسخوا نتاجهم ليقرأ ويسمع في دائرة محدودة تعبر عن شعب مصر وآلامه. . لكنها لا تصل إلى الشعب أبداً حيث وقفت المؤسسات الفنية الضخمة حائلاً بين الشعب وصوته.

هذا النقيض في عالم الثقافة والإعلام كان من اليسير على عبد الناصر "الحكم" أن يسيطر عليه أو يحتويه أو يسحقه دون أن تسيل نقطة دم جسدية واحدة ـ رغم أن بحاراً من الدماء والقتل المعنوي كان واقعًا ومستمراً.

المشكلة بدأت عندما أخذت العناصر الثورية ـ بين العمال والفلاحين ـ تمارس دورها في حماية ما أسموه "ظهر الثورة" وحراسة "مكاسب الشعب الاشتراكية" فقد لاحظت هذه العناصر الثورية ـ والتي هي 100٪ "يوليوية" أي تكون من الأحلام والطموحات التي تفجرت مع 23 يوليو 1952م ـ أن السيطرة ـ في كل قطاع عام أو مصنع أو جمعية تعاونية ـ كانت للمخالفين واللصوص والمرتشين وأهل الفساد كافة. . كانت السيطرة للأعداء الحقيقيين للاشتراكية المزعومة مما أدى إلى واقع مشلول الفاعلية للقطاع العام والمصانع والجمعيات التعاونية: ما بين مصنع منهوب وجمعية مسروقة ومستغلة وقوانين يتم التحايل لإبطالها، وبرز من بين هذه الطليعة الثورية صلاح حسين وزوجته شاهندة مقلد في قريتهما كمشيش. . كان "صلاح حسين" كادراً ثورياً نقيًا تربى في مدرسة الإخوان المسلمين التي تعهدت حماسه وجيشان غضبه للحق في سبيل الله، وكان قد سافر وهو في العشرين ضمن كتائب الإخوان المسلمين للدفاع عن أرض فلسطين عام 1948م، وعندما قامت

ثورة 23 يوليو 1952م اعتبر نفسه ضمن جنودها للتغيير والتصدي للإقطاع والفساد في قريته كمشيش، وكان دوره هو تشجيع الفلاحين على رفع رءوسهم عالية مستندين إلى ثورة يوليو 1952م في مواجهة طغيان وسطوة عائلة الفقي الإقطاعية التي مدت سيطرتها من خلال عملاء لها إلى الجمعية التعاونية للفلاحين، وإلى جهاز الأمن بالمنطقة.

وشهدت كمشيش عمليات الاعتقال والتربص بالفلاحين، وضربهم، وتعذيبهم لصالح عائلة الفقي التي لم تتوقف عن الوشاية بصلاح حسين وزملائه لدى أصدقائها في أجهزة الأمن، وبعض المسئولين في مجلس قيادة الثورة! وكان أن تم اعتقال صلاح حسين العديد من المرات بتهم مختلفة تتناقض مع بعضها البعض. فمن اتهامه بالانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين إلى الاتهام بتكوين خلية شيوعية في كمشيش! وكان صلاح حسين يحلل أسباب العسف الواقع عليه وعلى الفلاحين من سلطات الأمن بأن هناك بعض عناصر فاسدة في هذا الجهاز الموروث عن العهد البائد قبل الثورة، وأن القيادة الثورية في الحكم وعلى رأسها عبد الناصر لا يعرفون أمر هذا الفساد وهذا الظلم الواقع على أبناء الثورة المخلصين.

وبإيمان مطلق بهذه القيادة وبراءة نقية أخذ صلاح حسين على عاتقه أن ينبه القيادة الثورية الحاكمة إلى هذه المخالفات لمبادئ الثورة والتي من شأنها أن توقع بين الحاكم المخلص والمحكوم المخلص كذلك.

بهذا التصور البريء استمرت محاولات صلاح حسين وزوجته شاهندة وزملائهم لتنوير القيادة السياسية بما يحدث ضد الثورة في الخفاء، وكان اكتشافهم لعمليات مريبة تقوم بها الأسرة الإقطاعية "لتهريب الأرض" بالتحايل على حد الملكية الذي قرره القانون، وضم مساحات من الأرض ـ لا يسمح بها القانون ـ لملكياتهم

الخاصة، وكان لابد أن يستميت صلاح حسين وشاهندة لكي يستطيعا أن ينبها السلطة الغافلة ـ أو التي تدعى الغفلة ـ إلى هذه المخالفات الخطيرة التي تقوم بها عائلة الفقي بجسارة وإرهاب، وفي قمة هذه الاستماتة الثورية للحفاظ على قوانين السلطة الناصرية باعتبارها حق الفلاحين سقط صلاح حسين فجأة برصاصات غادرة شهيداً على أرض قرية كمشيش في 30/ 4/ 1966م ـ قبل أربعة شهور قبل تنفيذ حكم الإعدام في عدد من قيادات الإخوان المسلمين من بينهم الشهيد سيد قطب في 20/ 8/ 1966م.

وهاج الفلاحون، وقامت شاهندة ـ بعد 40 يومًا من وضعها لطفلتها بسمة ـ لتقود المظاهرات في كمشيش ضد الإقطاع ممثلاً في عائلة الفقي وضد عملاء الإقطاع مدركة هي والفلاحين أن القاتل لابد وأن يكون من عائلة الفقي صاحبة المصلحة المعادية لصالح الفلاحين، ورفع الفلاحون هتافًا يتساءل: "قلبوها حمرا يا جمال ولأمتى بيضا يا جمال!"، ونزلت عناصر سلطة عبد الناصر "لحكم" القرية مرتجفة من هياج الفلاحين الذين أقسموا على تمزيق عائلة الفقي وعملائها.

كانت السلطة خائفة من هياج "الفلاحين" المتجمع كما خافت من قبل في بدايات أيامها من هياج "العمال" المتجمع، ورغم أن هياج الفلاحين كان مستنداً إلى دعمه للثورة والسلطة الحاكمة كما كان هياج عمال كفر الدوار من قبل في 8/ 1952م إلا أن السلطة كانت تعرف نفسها وحقيقتها أكثر من معرفة الفلاحين والعمال بها. كانت تعرف أنها سلطة فوقية لا يمكن أن تسمح ـ بالذات ـ للفلاحين والعمال بمبادرات يمكنهم من خلالها المشاركة في تسيير البلاد، وفرض الحلول لمصالحهم. كانت تعرف أنها سلطة فوقية ارتدت الثورة رداء مستعاراً، ويمسك بتلابيبها فرد واحد لا يسمح لرأس مستقل، وحر وعزيز أن يرتفع أمامه حتى ولو كان مخلصًا محبًا له مرافعًا عن سلطته ممثلاً لشعاراته كما كان صلاح حسين.

ولقد طار من قبل رأس الشهيد العلامة عبد القادرة عودة عام 1955م لأنه استطاع أن يسكت الجماهير المتجمعة في عابدين في مارس 1954م بإشارة من يده بعد أن عجز عن ذلك الواقف إلى جواره[1] : فلقد عزم عبد الناصر منذ بداية انفراده بالحكم

---

(1) روايات عديدة أوردت جريمة قتل الشهيد عبد القادر عودة ظلمًا ـ فوق ظلم ـ بقرار من عبد الناصر شخصيًا، منها واحدة سمعتها شخصيًا من الأستاذ محمد عودة الكاتب السياسي الناصري وأخرى من الأستاذ فتحي رضوان ـ أطال الله عمره ومكنه من تسجيل شهادته بنفسه في هذه الواقعة للتاريخ ـ ثم أخيرًا شهادة الأستاذ أحمد حسين ـ رحمه الله ـ في مقاله الأخير قبل وفاته بأيام في جريدة الشعب 7/ 9/ 1982م ص6، والتي ـ لأهمية دلالتها في إطار هذا التحليل ـ أنقل عنها هذه السطور:

"نحن الآن في عام 1955م أفرج عني وتنازلت عن القضية، ولكني ظللت مجروحًا فلم يحدث في كل تاريخي النضالي أن أهنت كما أهنت واعتدي عليّ كما اعتدى عليّ في ظل الثورة. . .

أطلق الرصاص في ميدان المنشية على جمال عبد الناصر، وكان الضارب شخصًا يدعى عبد اللطيف من الإخوان المسلمين، وعلى الرغم من أن عبد الناصر قد نجا فقد ظن أنه أصيب في مقتل وراح يثرثر بكلام فارغ يكشف عما في عقله الباطن، وأخذ يخاطب الشعب بقوله: "غرست فيكم العزة والكرامة!".

واستغل هذا الحادث للبطش بالإخوان المسلمين وتألفت محكمة خاصة لمحاكمتهم وقضت على زعمائهم بعقوبات قاسية وعلى الرغم من أن واحداً منهم وهو عبد القادر عودة كان مسجونًا قبل وقوع الحادث فلم ينج من عقوبة الإعدام. وفزعت من هول المحاكمة. . ومن فظاعة أحكامها وأدركت أننا أصبحنا نعيش في ظل عهد جديد: حيث لا قانون ولا حدود وإنما إرادة الحاكم ومطلق مشيئته فقررت أن أهاجر من مصر، وإذا كان الوقت هو موسم العمرة فقد قررت أن أسافر السعودية طلبًا للعمرة ومن السعودية أختار البلد الذي أتوجه إليه. وإمعانًا في التمويه والتعمية طلبت مقابلة عبد الناصر لاستئذانه في السفر وبالرغم من أنني كنت مقرراً أن لا أتحدث في غير التحيات والسلامات والمجاملات العادية، فقد كان هو الذي دفعني للكلام حيث لم أتمالك نفسي عن نقده. سألني ما رأيك في الإخوان المسلمين؟ قلت: إنك تعرف رأيي ـ أقصد الموقف الأخير ـ ووجدتني أندفع بلا وعي أندد بإعدام عبد القادر عودة ـ قلت لقد كان باستطاعتك أن توفر 50٪ من النقد الذي وجه إليك لو وفرت حياة إنسان واحد. وأسرع يقول: تقصد عبد القادر عودة؟ قلت: نعم، فإن عبد القادر عودة بريء من الحادث الذي وقع، كما أنه بريء من أعمال العنف. ومضيت أترافع في حماسة: وهناك ثلاثة أدلة يكفي كل واحد منها لتبرئة عبد القادر عودة، وقد ثبتت كلها أمام المحكمة:

الأول: إنه كان سجينًا قبل وقوع الحادث بعدة أسابيع.

الثاني: إنه اقترح بعض الأعضاء القيام بمظاهرة مسلحة فأنكر عبد القادر عودة هذا الاقتراح بشدة.

والثالث: إن البعض اقترح القيام بمظاهرة سلمية فرفض عبد القادر عودة القيام بأية مظاهرات. =

على ألا يسمح لكائن من كان أن يرتفع في مصر على أيدي الجماهير أو أن تفرز الجماهير من ذاتها باختيارها من تراه ممثلاً لها، وهذا الذي يدفعني إلى القول بأن اغتيال صلاح حسين لم يكن في واقعة إلا تنفيذاً لحكم بالإعدام صدر عليه من قبل السلطة التي أزعجها نشاطه وصدقه وجماهيريته الراسخة بين أبناء قريته، ومما يؤكد هذا القول ما ذكره أنور السادات كثيرًا في خطبه ثم في كتابه "البحث عن الذات" من أن عبد الناصر امتعض حين مر على كمشيش أثناء زيارة وقرأ لافتة تقول: "ثورة كمشيش تحيي الثورة الأم ثورة 23 يوليو!" وقال عبد الناصر: "الله.. هو فيه ثورة تانية في مصر واحنا مش عارفين والا إيه"!؟

إزاء هياج الفلاحين في كمشيش ـ لمقتل زعيمهم صلاح حسين ـ تحركت خطة عبد الناصر المعتادة في تمييع المواقف الساخنة.. فلم يكن بوسع السلطة أن تفعل بالفلاحين عام 1966م ما فعلته بعمال كفر الدوار 8/ 1952م ولذلك كان عليها أن تستبدل الوجه الجهم في مواجهة العمال بالابتسامة الصفراء في مواجهة الفلاحين: وبدأت الخطة باحتضان قضية مقتل الشهيد صلاح حسين على أساس أنها قضية تستوجب تحقيقًا تتبناه الدولة لمعاقبة الإقطاع الذي بدأ يتحرك ـ (هكذا! ولم يجد أحد الفرصة ليتساءل وكيف تركتم إقطاعًا به قوة للتحرك ولقتل العناصر الثورية بعد أربعة عشر عامًا من حكم تسمونه "ثورة!") ـ واستفادة من منطق: "اقتل القتيل وامش في جنازته" ومبدأ "اقتل الجميع بحجر واحد" واحتياجًا لـ"زار" صاخب تتوه فيه جرائم القتل ـ الممهد لها والتالية ـ التي تقرر تنفيذها في زعماء المقاومة الإسلامية

= وأصغى عبد الناصر لمرافعتي ثم قال: "والله يا أحمد نحن لم ننظر للأمر من الناحية القانونية، بل نظرنا إليه من الناحية السياسية".

غادرت مصر إلى السعودية، وأنا لا أكاد أصدق أنني هربت من الجحيم الذي أصبح فيه الأبرياء يعدمون لأسباب سياسية...". انتهى المقتطف.

وعلى رأسهم الشهيد سيد قطب في 20/ 8/ 1966م: وجدت السلطة ضالتها في قضية كمشيش التي تفجرت مع عيد العمال 1/ 5/ 1966م.

صرخ الفلاحون: "الإقطاع هو القاتل: الويل له". فالتقطت السلطة هذه الفرصة الذهبية لإخفاء جريمتها ومسئوليتها عن قتل الشهيد صلاح حسين: الجريمة التي نفذتها وحدها ـ ربما ـ أو نفذتها بالاتفاق مع عائلة الفقي ـ ربما كذلك ـ حيث التقت مصالح السلطة ومصالح الإقطاع في الخلاص من الشاب الشريف المتألق بحب وثقة الفلاحين الشهيد صلاح حسين[2].

وهكذا، ومع الإقرار بجرائم عائلة الفقي وتاريخها الطويل الأسود في العمالة للمستعمرين الإنجليز، وقتلهم وإذلالهم للفلاحين المعدمين إلا أن عائلة الفقي ما كان يمكنها أن تنقض على أحد إلا بإيعاز وتواطؤ مع سلطة عبد الناصر، ولرؤية ضوء الموافقة الأخضر يحمله إليها صديقها الحميم ومندوب عبد الناصر لديها "محمد أنور السادات".

وقررت سلطة عبد الناصر أن تصرخ ـ لبعض الوقت ـ مع الفلاحين: "الإقطاعي هو القاتل: الويل لعائلة الفقي"، فهي على كل حال لن تخسر شيئًا.. بل هي الكاسبة في كل الأحوال، ومكاسبها هي:

1. التخلص من صلاح حسين: كزعيم محتمل خطره بين الفلاحين.
2. إرهاب الإقطاع وعائلة الفقي وابتزازهم لعائد منافع شخصية، والمزايدة بهم في

(2) تجدر الإشارة هنا إلى أن صلاح حسين ظل محدد الإقامة طوال سنوات 52،53،54 بسبب معاركه ضد الأسرة الإقطاعية ثم اعتقل عام 1954م ضمن اعتقالات الإخوان المسلمين ولم يفرج عنه إلا عام 1956م، ثم اعتقل مع الإخوان مرة أخرى ضمن هجمة 1965م الشهيرة.. ولقد ظل صلاح حسين معزولاً سياسيًا حتى لحظة اغتياله مما يوثق استنتاجاتي بتواطؤ السلطة الناصرية مع الأسرة الإقطاعية في جريمة قتله.

الشعارات الطنانة المفيدة لواجهة الإعلام المزيف الثورية ـ (لم يتم إعدام أحد من عائلة الفقي وحكمت المحكمة ـ كما سنتبين ـ ببراءتهم مما خول لهم حقوق التعويضات الهائلة التي دفعتها لهم السلطة نفسها فيما بعد ـ في حكم السادات ـ مقابل الأضرار والتعذيب الذي لحق بهم: فكأن السلطة كانت في الواقع تؤجرهم "ملطشة" لبعض الوقت عازمة في ضميرها أن تدفع لهم أجر ذلك فيما بعد!).

3. إقامة حفلة زار ضخمة يتطوح فيها الجميع: صارخين بلعن الإقطاع، فيتم إلهاب التعلق "بالشجيع" عبد الناصر الذي لا بأس أن يذهب فداء له أي شيء وأي أحد ولو كان عالمًا فذًا لا يعوض مثل الشهيد سيد قطب ـ روحي فداه.

ونجحت الخطة اللا أخلاقية لسلطة عبد الناصر.. أجلت الخطب والبيانات والحملة الإعلامية ضد الرجعية والإقطاع.. إلخ غضب الفلاحين الفوري وحركتهم العفوية وغضب شاهندة الثوري العاصف، وتم الإعلان عن محاكمة عسكرية لعائلة الفقي بعد القبض عليهم، وممارسة الهواية الناصرية عليهم ألا وهي هواية: "التعذيب الفاحش" الذي كان يتم ويمارس على كافة التيارات السياسية الملقاة خلف سجون عبد الناصر الشهيرة.

بعد الإعلان عن المحاكمة العسكرية توقف مهرجان حفلة الزار ضد الإقطاع، وفتر بعد أن استنفدت أغراضه الدعائية والسياحية السياسية، ثم تطور الموقف إلى نتيجة صعق لها الفلاحون بعد أن تأجلت المحاكمة العسكرية عامين من 1966 إلى عام 1968م قرر عبد الناصر تحويلها إلى قضية عادية تنظرها محاكم عادية.

ونظرت محكمة صادق المهدي بدار القضاء العالي المهزلة! لم تعد القضية محاكمة عائلة الفقي أو الإقطاع بل تحولت في صيف 1968م إلى محاكمة ظالمة جائرة للشهيد المقتول صلاح حسين، وبدأنا نشاهد قراراً جديداً بإعدام صلاح حسين.. لكنه كان

بشكل مختلف: تشويه صورته الوضيئة . . ما بين صورة فارض الإتاوات على الفلاحين . . البلطجي . . المنحل . . إلى صورة التافه المغرور فاقد القيمة المدعي إلى صورة المتطرف الديني، والشيوعي الملحد، الذي حول كمشيش إلى بؤرة للعمالة للاتحاد السوفيتي! ولم تكتف المحاولة الإجرامية بهذا التشويه الحاقد الموتور بل قررت أن تلوح بتهديد لزوجته شاهندة، أن "مجرور" أجهزة الأمن والدعاية جاهز بنشر ظلال وشبهات الوحل حول عرضها كامرأة!

ففي أوج ما بعد عام الهزيمة المرة 6/ 67 وذلك في 5/ 68: وقفت "شاهنده مقلد" أرملة الشهيد صلاح حسين مع الفلاحين في دار القضاء العالي غير مسموح لهم بعرض قضية مقتل شهيدهم بل تولت النيابة عرض القضية ـ بفتور ـ بصفتها ممثلة للدعوى التي أقامتها "الدولة" ضد عائلة الفقي. وفي المقابل وقف المتهمون ممثلين بهيئة دفاع من كبار عتاولة مهنة المحاماة الذين يمثلون بواقعهم الفكري والاجتماعي العقلية الاستكبارية بأبشع أحوالها حين تطمح لتكون من الإقطاع. وكان من المعروف أن كل محام قد تسلم من العائلة الإقطاعية ما لا يقل عن خمسة آلاف جنيه، ووقفت هيئة الدفاع ـ بعقليتها هذه السادرة في الرجعية والتخلف وارتزاقها الواضح من العائلة الإقطاعية ـ وقفت تسب وتلعن كل أسس الفكر الاشتراكي ـ (المفروض أنه كان شعار الدولة) ـ وتسخر مما يسمى "الاشتراكية العربية" ـ (وهجومها هذا بالطبع لم يكن لصالح الدعوة إلى الإسلام وإنما لصالح الجشع والطمع) ـ وتدافع عن حق الإقطاع في اقتطاع ما يشاء من أرض وثروة.

ـ (ومازلت أذكر المحامي الذي وقف يصرخ: "ملك الملوك إذا وهب . . لا تسألن عن السبب" في معرض إرساء مبدأ أحقية الإقطاعي المستكبر في سرقة حق المستضعفين من الفلاحين) ـ وظلت هيئة الدفاع تندد بالشهيد صلاح حسين ـ "القتيل الغائب الذي لا يملك الدفاع عن نفسه".

وكان هناك تنبيه علينا في الصحف ألا نتابع هذه المحاكمة كصحفيين. ومنعت الرقابة نشر أي شيء عن المحاكمة أو القضية، وكان هناك أمر بحذف كلمة "كمشيش" لو جاءت عرضًا في قصيدة أو قصة أو مسرحية أو مقال، وذلك حتى لا تتحول القرية وشهيدها إلى ملحمة وطنية تترسخ في مشاعر المواطنين! ولم يكن في المحكمة شهود عيان من الصحفيين إلا ثلاثة:

1. **لطفي حسونه**: مندوب أخبار اليوم والموالي للفقي.
2. **محمد عودة**: الكاتب السياسي الناصري والمفروض أنه يؤيد الفلاحين ومتعاطف مع موقف شاهندة، إلا أنه كان موفدًا من قبل قنوات السلطة الناصرية لينفذ تعليماتها في مص غضب الفلاحين وشاهندة والسيطرة عليهم بتوجيه النصائح والاقتراحات الكفيلة بإحباط انفعالاتهم حتى لا يفلت زمامهم في قاعة المحكمة أو خارجها.
3. **وكنت أنا الصحفية الثالثة**: حاضرة بقراري الذاتي بصفتي ناقدة مسرح!، لأكون شاهدة للتاريخ لعلي أتمكن في يوم من الأيام أن أقول لأبناء أمتي الحقيقة التي رأيتها - كنت أجلس مذهولة ومندهشة لكل ما يدور ولا أكاد أصدق أن هذا يحدث في ظل حكم أدعي تحمله مسئولية القصاص للشهيد المقتول، ويرفع الاشتراكية وحق الفلاحين شعارًا من شعارات سياساته الرئيسية.. وكنت أقول في نفسي: لو أن هذا حدث في ظل حكم آخر لقال عباد وعبيد عبد الناصر: "لو كان عبد الناصر موجودًا أو على قيد الحياة لما حدث هذا!".

وها هو يحدث وعبد الناصر على رأس الحكم وعلى قيد الحياة متباهيًا يظهر في التليفزيون يهدد الشعب بعد مظاهرات الطلبة للاحتجاج على هزيمة 67 في مطلع عام 1968م: "أنا عندما أردت - اعتقلت 18 ألف مواطن في يوم واحد"! — مشيرًا إلى مذبحة الاعتقالات في الصيف الأسود 1965م.

وقتها نبهت شاهندة: إن ما يحدث ليس صدفة، وليس معبرًا عن هيئة دفاع مغرضة ورجعية فقط. . ولكن الأمر أخطر. . وقلت لها إنني أكاد أصل إلى حد اليقين إن سلطة عبد الناصر طرف له مصلحة في اغتيال صلاح حسين، وإلا لما سمح للأمور أن تصل إلى هذا المدى بحيث صار القتيل هو الجاني وصار القتلة من المجني عليهم.

وصدر ـ ما توقعته ـ من قرار للمحكمة ببراءة الإقطاعي العتيد وتم التنويه بأن القضية قضية ثأر عادية، وليس لها علاقة بالسياسة، ولا تمثل هجمة للإقطاع على الثورة والقوانين الاشتراكية!

وصعقت شاهندة وصعق الفلاحون وقرروا الخروج بمسيرة احتجاج. وهنا تدخل الأستاذ محمد عودة ليؤدي دوره الموكول إليه بتبني غضب الفلاحين وثورة شاهندة واحتوائهما تمهيدًا لتبديدهما أدراج الرياح، وفعلاً نصح شاهندة بكتابة نص احتجاج على هذه المحاكمة وتبرئة الإقطاع يوقع عليه المثقفون تضامنًا معها، وترفع لعبد الناصر. . ورغم أن شاهندة كانت توافقني قلبيًا على رفض الانصياع لنصائح الأستاذ محمد عودة، ودائرة المثقفين ـ الثوريين مع وقف التنفيذ ـ من نوعيته. . إلا أن شاهندة كانت تعرف أن قدراتها محدودة هي وفلاحيها. . ولم تكن بقدرة التصدي المفرد لسلطة عبد الناصر وأجهزة أمنه التي تشتهي ذبحها ـ (وعلى قمتها وزير الداخلية شعراوي جمعة) وبد لي كأنه كان محتومًا على شاهندة[3] أن تواصل الحرب ضد عبد الناصر من خلال عبد الناصر في غياب حركة إسلامية تشد الجميع إلى نورها.

كان الموقف واضحًا ـ لدى كل الصادقين من المثقفين الوطنيين الأحرار ـ بأنهم يقفون في موقف حرج بين:

---

(3) تجدر الإشارة هنا إلى أن السيدة شاهندة مقلد لا تزال إلى الآن تمثل وجهًا من وجوه التيار الناصري، وهي واحدة من أهم الكوادر البارزة في حزب التجمع اليساري.

1. تيار استكباري رجعي يسفر عن مفهومات رجعية متخلفة ويضمر الكراهية والمعارضة لعبد الناصر على أساس أنه يحقق الاشتراكية التي هي ضد مصالحهم . . وهم يكرهون الاشتراكية ليس حبًا في الإسلام، ولكن لأنها تفرض الحراسات على اللصوص من المستكبرين لصالح الفقراء من المستضعفين - وهذا هو التيار الذي استمر وساد السلطة المصرية تحت حكم محمد أنور السادات، حيث كان السادات أحد ممثلي هذا التيار . . بل ركيزته الأساسية فترة حكم عبد الناصر . . وهو مع صفته هذه كان محل ثقة ورضاء كامل من عبد الناصر الذي صفى كل أصدقاءه وزملاءه من مجلس قيادة الثورة - على مدار سنوات حكمه - وكان السادات من القلائل الذين ظلوا على النهاية متمتعين بثقة عبد الناصر سالمين من غدره .

2. تيار ثوري انتهازي يتكلم بلغة الشوارب، ويستخدم اصطلاحاتهم، ويصفق للاشتراكية - حيث يتفق مع الرجعية في ترويج أكذوبة أن عبد الناصر حقق الاشتراكية والعدالة الاجتماعية للشعب المصري المغدور به . والفارق أن الرجعية كانت حزينة لذلك، وهم كانوا سعداء والواقع أن كليهما كان متوهمًا وكاذبًا في سبب حزنه وسعادته لأن الواقع الذي كان يعيشه الجميع أثبت أن اشتراكية عبد الناصر مزعومة أو أنها كانت عاطلة التنفيذ والجدوى إلى حد انتفائها وغيابها كلية - وكان هذا التيار بانتهازيته يجمع مكاسب مادية هائلة يسوغها لنفسه بمقولة: "الاشتراكية لا تعني الفقر . . الاشتراكية من أجل حياة أفضل" ! وكانت وظيفته الأساسية أن يزور حقيقة عبد الناصر، ويجعل منه وثنًا معبودًا له خوار، ويفلسف كل أخطائه ويبررها، ويدافع عنها أمام الرأي العام العربي والعالمي، ويقوم بدور تشويه وسحق مجموعة المثقفين الشرفاء من الحركة الإسلامية والعلمانية على السواء، ويتهمهم بالتطرف والطفولة الثورية والإرهاب

والشغب! ـ ونجد امتداد منهج هؤلاء وبعض عناصرهم يتمثل في النوعيات التي تقود أحزاب وصف ومؤتمرات المعارضة العلمانية حاليًا في عصر ما بعد السادات! .

كان هذا التيار يهندسه ويقوده الصحفي الأوحد "محمد حسنين هيكل" وتحت إبطه مساعده "لطفي الخولي" ـ قبل أن يغدر به ـ بالإضافة إلى ثقلين ثقافيين رئيسيين هما: توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ـ هاتان الشخصيتان الزئبقيتان اللتان أثبتتا قدرة شيطانية رهيبة في القفز واللعب على حبال كل التيارات بحيث أمكن لهما الامتداد والاستمرار في مكانتهما الراسخة العالية لدى كل سلطة مهما تغيرت الأقنعة واللغة واللهجة والصوت. وكان اسم كل من هؤلاء يحتكر تحت إمرته وحمايته طابورًا من أسماء عديدة ـ معظمها ناصرية وماركسية وتوليفة الماركسية الناصرية والناصرية الماركسية ـ وكان كثير من تلك الأسماء على علاقة عمل وثيقة مع وزير الداخلية آنذاك. وهذه الأسماء انقسمت في عهد السادات إلى قسمين:

1. **جزء**: رضي السادات أن يضمه إلى مؤيديه مثل توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وعبد الرحمن الشرقاوي... إلخ، مع ركائزه الثقافية الأساسية برئاسة يوسف السباعي.
2. **الجزء الآخر**: رفض السادات أن يضمه إلى مجموعه أو طقم خدامه مثل لطفي الخولي وجماعته رغم الكتاب الذي ألفه لطفي الخولي: "مدرسة السادات السياسية"، وظل الخولي وجماعته يتزلفون للسادات إلى آخر لحظة ويسمون حكومته: "حكومة وطنية" لابد من دعمها وكانوا يهاجمون حركة الطلبة المعارضة التي تصدت لزيف شعارات السادات الديمقراطية منذ البداية.. ولم تنقلب هذه الجماعة على السادات إلا حين تأكد إصراره على رفضهم حين أغلق مجلتهم "الطليعة" و"الكاتب" وعوق مجالات رزقهم ونشرهم.. هنا بدءوا يعزفون ألحان المعارضة العالية جدًا حتى إنها صارت أعلى الأصوات جميعًا!

كان شعراوي جمعة وزير الداخلية من نوع عجيب: فعلاقاته بالمثقفين والصحفيين والكتاب كانت أقوى وأكبر من علاقاته بعساكره ومخبريه وضباطه. ليس ذلك بسبب أنه شرطي مثقف ولكن لأنه شرطي قمع ذكي عرف ـ بعد قمع المقاومة الإسلامية ـ من أين يمكن أن تهب الريح الخطرة، وكان يرعى بنفسه بعض الشعراء والكتاب الشباب ـ منهم عبد الرحمن الأبنودي الذي أفاده فيما بعد في محاربة الشاعر أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام، وجعل شعراوي جمعة من نفسه قطبًا أدبيًا فتولى رئاسة مؤتمر الأدباء الشباب الذي عقد بالزقازيق عام 1969م وكانت ظاهرة غريبة عجيبة تساءل فيها الجميع: لماذا يرأس وزير الداخلية مؤتمرًا لأدب الشباب؟ وما مهمة وزير الثقافة إذن؟

والغريب أن يوسف السباعي كان يجلس إلى جواره في هذا المؤتمر ودودًا مبتسمًا متشرفًا برئاسة وزير الداخلية رغم أنه كان ـ فيما بعد في زمن السادات بعد عامين فقط ـ ممن مزقوا وجناتهم لطمًا وحزنًا. سنوات القهر التي مارسها شعراوي جمعة ومراكز القوى.

بين أشواك هذين التيارين الرهيبين وقفت العناصر الثورية الصادقة والشريفة موقفًا صعبًا. كان عليها أن تسلك طريقها وتؤدي مهمتها في نقد وفضح زيف ودجل سياسة عبد الناصر السرابية من دون أن تقع فيما يشمت الرجعية الاستكبارية ويشجعها، ومن دون أن تعطيها ما يمكن أن تستغله لضرب الطموح الثوري للفقراء المستضعفين من أبناء الشعب المصري، والطموح الثوري لتحرير مستضعفي المنطقة من الاستعمار والصهيونية من الوجود الأمريكي الإسرائيلي للسيطرة والهيمنة على مقدرات هؤلاء المستضعفين من شعوب المنطقة بالقوة والاغتصاب والمؤامرات الغادرة. كان عليها أن تنجح في ذلك، ومن دون أن تقع كذلك في تحالف مع نغمة الطبل والزمر والخطابة الجوفاء التي يعزفها الانتهازيون في صلاتهم الوثنية لعبد الناصر، وكانت المشكلة أن

هذه العناصر الثورية الشريفة كانت ـ ولا تزال ـ مشتتة لا يعرف بعضها البعض إلا في النادر، وكانت تدرك عزلتها ووحشيتها أمام التيار القوي الغالب للمثقفين الانتهازيين ـ خاصة التيار الذي يحتضنه ويشرف عليه محمد حسنين هيكل ـ ظل هذا الموقف بواجه المعارضة الصادقة للسادات بعد موت عبد الناصر، إذ وجدت المعارضة الصادقة للسادات نفسها بين أظافر السادات الشرسة التي نهشت عبد الناصر لأهداف خاصة وبين تيار الوثنيين. . وثن عبد الناصر ـ حتى بعد هلاكه ـ لابتزاز السادات مستمراً في محاولة إرهاق مصر بزجها في تلك الحلقة المفرغة: "السادات ـ عبد الناصر أو عبد الناصر ـ السادات".

وكانت العناصر الثورية الصادقة تستمد موقفها ـ أغلب الأحوال ـ من مبادئها الأخلاقية الذاتية، وكرامتها الإنسانية. وكان بعضها له تماس مع الماركسية، وبعضها له تماس فع مواثيق ثورة يوليو، ويظن أنه بالإمكان إنقاذ عبد الناصر من انحرافاته لو أتاح الفرصة والأمان لكي يستمع إلى الملاحظات المحبة والمخلصة، وكان بعضها عناصر وطنية إسلامية ـ خارج الإخوان المسلمين ـ تعارض الماركسية باعتبارها فكراً يساريًا يعوق مسار الثورة الأصيلة الطامحة إلى التحرير بمنطلقات العروبة والإسلام، وكانت ترى عبد الناصر عائقًا ضخمًا في المسار الصحي للثورة إذ إنه يزحم الساحة ولا يزيدها إلا خبالاً.

قبل هزيمة يونيو/ حزيران 1967م كانت الساحة المصرية تنضح بكل العوامل التي من شأنها أن تقود إلى هزيمة!

ولم يكن هذا الحدس أو هذا الفهم خافيًا على أحد من المبصرين حتى إحد الشعراء الشباب ـ محمد إبراهيم أبو سنة ـ نشر في مجلة تصدر ببيروت عام 65/ 66 قصيدة بعنوان "غزاة مدينتنا" يحكي فيها عن مدينته التي دمرت ونهبت وينهيها بقوله: "كنا نحن الأعداء: كنا نحن غزاة مدينتنا!".

كان عبد الناصر يعلن في المؤتمر الصحفي العالمي عن صواريخ القاهر والظافر وكيف أنها بقوة تصل إلى مدى يلامس "جنوب لبنان" ـ وكان يضحك قاصداً الغمز إلى ما يعنيه بجنوب لبنان هو أرض فلسطين المحتلة بالكيان الصهيوني ـ وكانت شاشات التليفزيون تعكس ثقته بنفسه وتعكس العيون القريرة من رجالاته في الأمن وفي الفكر والفن والثقافة المعجبة به، المدلهة في حبه.

وكان الشعب رغم كل أزماته وكل تضحياته وكل جوعه وقهره وآلام أمراضه فرحًا مؤمنًا بأن عبد الناصر ـ كما أفهموه بالطبل والزمر في الصحف والإذاعات ـ لا شك قادر على هزيمة الكيان الإسرائيلي ودخول تل أبيب وكان يهتف.

"عبد الناصر يا حبيب ..... بكره ندخل تل أبيب"

وكان هذا الشعب المخلص الفقير على استعداد أن يتطوع حتى بجلده ـ بعد أن يفقد جلبابه الوحيد ـ في سبيل الحرب المصيرية: ولم يكن على استعداد مطلقًا أن يقول له أحد إن آخر الصبر وشد الأحزمة على البطون من أجل المعركة يمكن أن يكون في النهاية سرابًا ومذبحة في صحراء سيناء!.

وللأسف حدث آخر ما كان يريده الشعب المصري وحدث ما توقعته زرقاء اليمامة الطليعة الواعية التي رأت وتكلمت وحذرت ففقئوا عينيها.

مع إعلان الهزيمة النكراء باسم "النكسة" أعلن عبد الناصر تنحيه 9/ 6/ 1967[4]. وتصور الشعب الطيب أن "قوى خارجية" أو "قوى داخلية" قد أرغمته على هذا القرار فكان أن هبت الجماهير برد فعل قوي أخذ شكل الخروج إلى الطرقات بلا ترتيب مسبق ترفض ما يمكن أن يكون إذلالاً لسيادتها. والتفوا يساندون

---

(4) تجدر الإشارة هنا إلى أن عبد الناصر عين خليفة له شخصًا كريهًا هو زكريا محيي الدين، وكأنه كان يتنحى من ناحية ويدعو الناس إلى التمسك به من ناحية أخرى.

عبد الناصر "الرمز" ويستنقذون فيه كبرياءهم القومي وعنادهم الصلب تمامًا كما ساندوه من قبل في أزمة 1956م. وأعلنوا في هتافاتهم "بالروح بالدم حنكمل المشوار" قاصدين مشوار الجهاد ضد الكيان الصهيوني حتى التحرير والنصر. وكان موقف الشعب العظيم ـ رغم دماء أولاده التي لم تجف بعد على رمال سيناء ـ كان أكبر وأعمق من أن يستوعبه عبد الناصر بمنهجه الذاتي. وككل شيء عظيم قدمه الشعب المصري واستغله عبد الناصر لنفسه نزلت مظاهرات 10/ 6/ 1967م من الجماعات الموجهة من السلطة محرفة للشعار التلقائي المجيد الذي أعلنته روح الشعب الفدائية وتم تشويهه إلى: "بالروح والدم نفديك يا جمال".

وشتان بين منهج يقول بالروح والدم فداء للمعركة، ومنهج "وثني" يكرس الروح والدم من أجل "فرد"، ولكنها كانت العقلية الناصرية المريضة بعبادة الفرد "والفردية" التي تبدت بجلاء في شخصية عبد الناصر "الرجل" وفي جماعته المسماة بـ"الناصريين" في زمانه وحتى الآن: عقلية تكريس "الكل" من أجل "الفرد" أو "الجزء" بدلاً من تكريس "الفرد" و"الجزء" من أجل "الكل"، وهذا ما يفسر لنا لماذا سمى أتباع سياسة عبد الناصر أنفسهم بـ"الناصريين" ـ مناصرة للرجل ـ ولم يسموا أنفسهم مثلاً بـ"اليوليويين" نسبة إلى ثورة "23 يوليو 1952". وهذا أيضًا ما يفسر لنا فرحتهم كلما شاهدوا صورة لزعيمهم أو سمعوا له صوتًا، ويثيرون القضايا من أجل تسمية "بحيرة السد العالي" بهذا الاسم الكلي الراقي مطالبين بعودة الاسم الذاتي السارق لجهد الشعب المصري: "بحيرة ناصر" العقلية الناصرية التافهة السطحية التي ما إن تسيطر على إذاعة أو بوق إعلامي حتى تسارع إلى إغراقه بركام الأغنيات المخجلة عن "البطل اللي جابه القدر" و"عرفوني وقالوا لي انت من بلد ناصر" و"الفارس المارد العربي.. جمال"... إلخ.

وتشهد الحقيقة الفكرية لهذه الأغنيات كلها على تصور رجعي بدائي . حيث إن البطل لم يأت به الشعب ولم يبلوره من خلال تضحياته لا . بل "جاء به القدر" . . وبدلاً من تكون مصر هي "الكل" الذي ننتسب جميعًا إليها ومعنا عبد الناصر . صار العكس وصرنا جميعًا ومعنا مصر والأمة العربية . ننتسب إلى "فرد" "مارد" "فارس" "واحد" اسمه جمال عبد الناصر ! ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

مرحلة ما بعد الهزيمة

عاش عبد الناصر بعد هزيمة 5/ 6/ 1967م ثلاث سنوات وثلاثة أشهر و23 يومًا حتى هلاكه في 28/ 9/ 1970 : سمًا أو غمًا : الله أعلم .

حين ننظر إلى هذه الفترة الآن لا نستطيع أن نهرب من مواجهة حقيقة لم تخف على أحد ـ وإن أخذت أسماء عديدة ـ وهي أن عبد الناصر كان يتحلل تدريجيًا وينكمش ، وأخذت أوراق لعبة السياسية تتكشف بجلاء حتى لمحبيه والباقين على حماسهم لشخصه ، ومع إحساسه بفقدان هيبته وتأثيره الأول ـ خاصة عندما قامت أول مظاهرات معارضة له في أوائل عام 1968م بعد صدور أحكام ما تعرف بقضية الطيران ـ لم يجد عبد الناصر حرجًا في أن يدين أسلوب المظاهرات بشكل مطلق حتى تلك المظاهرات الوطنية التي شارك فيها في الثلاثينيات في الإسكندرية ، والتي طالما افتخر بها كدليل على نضاله الوطني منذ صباه ، وظهر عبد الناصر في التليفزيون يلقي خطابًا غاضبًا على الأمة ويعالج موضوع مظاهرة الطلبة بأسلوب ناظر مدرسة يمسك العصا وإن كان يؤجل استعمالها لعدم ثقته في قوته وتأرجح مركزه وتكلم عن الطلبة على أساس أنهم : " شوية عيال مش فاهمين حاجة " ، وقال إنه لن يعاقب ولن يعتقل أحدًا منهم لكنه سيتركهم لآبائهم يؤدبونهم ـ على أساس أن الآباء قد ذاقوا بطشه ولم ينسوه بعد! ـ ولوّح ـ بلا خجل ـ لماضيه العريق في إصدار قرارات الاعتقال ظلمًا وبلاً روية قائلاً : " أنا كنت أقدر أحبسهم . أنا في 1965م أصدرت قرارًا باعتقال 18 ألف في يوم واحد! " ـ متناسيًا أن تراكمات هذه المظالم هي التي أدت إلى هزيمته وفشله .

وأدرك غالبية المثقفين الشرفاء أن عبد الناصر لم يتسامح مع هذه المظاهرات

المحتجة لطيبة قلبه، ولكن لأنه فعلاً لم يعد قادراً على أن يقوم بدور "الوحش الكاسر" ضد الشعب المصري. هذا الدور الذي أجاد أداءه قبل أن تسقط آخر أوراقه وتكتمل هزيمته بفضيحة حرب الأيام الستة، وأخذ الوضع يتدهور فبدأ يلجأ إلى تكتيكه التقليدي وهو أن يشعل البلد في ضجة بلا طحن أو طحين، وبدأت هذه الضجة الفارغة بإنزال قيادات حزبه السري لكي تقيم يوميًا ندوات لمناقشة الاستعدادات للمعركة والإجابة عن تساؤلات الناس: لماذا لا نكون جيشًا شعبيًا ونمارس حرب عصابات تنطلق عبر الضفة الأخرى من القناة، ولا تعطي المحتل فرصة يهدأ فتعوق استقراره حتى ننتهي من إعادة بناء الجيش؟ ـ مثل الدور الذي كان يقوم به الشعب المصري ضد معسكرات الإنجليز وضد تواجدهم في القناة سنوات مطلع الخمسينيات قبل الثورة.

وحضرت وقتها ـ بصفتي الصحفية ـ مؤتمراً عقده السيد عبد المجيد فريد في حي العباسية ـ الذي أسكن به ـ وكان يقول للناس ـ ببرود مع استخفاف محكوم وملجوم بحرج الموقف ـ ما معناه: "لا تشغلوا بالكم أنتم بهذه الموضوعات واستمروا في العمل والإنتاج، وثقوا بأن القيادة السياسية عين ساهرة لا تنام! فقط عليكم تهيئة جو الهدوء! حتى نفكر بذهن صاف.. وإن شاء الله.. إن شاء الله حنخوض المعركة بس أعطونا فرصة نستعد!".

وأيقنت ساعتها أن هذه الندوات ليست إلا حفلات "زار" لإنهاك الشعب المجروح في دوامتها إلى أن تمتص طاقة حزنه العصبية، وتهدهده لكي ينام ولا يفتح عينيه على المصائب التي توالت بعد الهزيمة من قبول للقرار 242 ـ الذي يتضمن اعتراف مصر بحدود آمنة معترف بها لإسرائيل ـ إلى مبادرة روجز إلى مذبحة المقاومة التي ارتكبها الملك حسين ملك الأردن ـ وكانت المقاومة الفلسطينية تذبح في أيلول ـ سبتمبر الأسود سنة 1970م، وكان الشعب المصري يضع على أذنه المذياع، ويستمع

إلى صرخات العطاشى ونداءات المقاتلين، وهو مذهول لصمت وتلكؤ عبد الناصر واللجنة التي كونها من الباجعي الأدعم من تونس وجعفر النميري من السودان والقذافي من ليبيا للذهاب إلى الأردن لمشاهدة ما يحدث، وتقديم تقرير عنه! ثم ازداد ذهول الشعب المصري لاستقبال عبد الناصر للملك حسين والاجتماع به في القاهرة بعد مذبحته الإجرامية، وكانت الناس تتساءل غير مصدقة: هل هذا هو عبد الناصر؟ هل هذا هو عبد الناصر؟

وأذكر أنني دخلت مستاءة مكتب رئيسي: رئيس تحرير مجلة المصور وقلت له: كيف يستقبل عبد الناصر الملك حسين بعد كل هذا؟ فقال لي: صحيح استقبله لكنك لا تعرفين أنه رفض أن يصافحه! - مضافًا إلى كل هذا كانت التنازلات الواضحة المستمرة عن مبدأ الاشتراكية - ولو أنه كان مجرد شعار - وبدأت العودة إلى تدعيم القيم التي كانت السلطة وكتابها من قبل يزجرونها ويسمونها "القيم البرجوازية"! بدأ تدعيم هذه القيم "البرجوازية" من خلال المجلات والصحف، ومعها تدعيم نزعة الإقليمية المصرية، والتراجع عن نزعة القومية العربية وتمثل هذا في احتضان وتشجيع مسرحية مريبة من القطاع الخاص! اسمها "ياسين ولدي" لفرقة تحية كاريوكا من تأليف فايز حلاوة وإخراج كرم مطاوع تطرح نزعة الإقليمية المصرية عالية وحادة إلى درجة الهستيريا - مماثلة للنغمة التي ارتفعت في جنازة يوسف السباعي 19/ 2/ 1978 حين ارتفعت الهتافات التي خرجت عن العقل: لا فلسطين بعد اليوم! — وركزت المسرحية على نغمة أن كل المصائب التي حدثت لمصر العروس الجميلة بسبب العرب - بحيث أصبح العرب لا الكيان الصهيوني هم أعداء الشعب المصري - ورغم السماجة الفنية التي عرضت بها هذه المضامين الخربة المريضة لاقت هذه المسرحية رواجًا بين الكتاب والصحفيين، لا فرق بين من يدعى أنه تقدمي مؤمن بالقومية العربية وبين من هو مثل موسى صبري - ثلاثة رقصوا حتى ماتوا من الإعجاب بهذه

المسرحية هم : د. يوسف إدريس ، يوسف السباعي ، موسى صبري ، وحضر هذه المسرحية ممثلون للسلطة السياسية - شعراوي جمعة وزير الداخلية وضياء الدين داود وعبد المحسن أبو النور ، وخرجت الإشاعات تقول: إن شعراوي جمعة قدم عونًا ماليًا لفرقة تحية كاريوكا كعربون إعجابه بمسرحية "ياسين ولدي" - كانت تحية كاريوكا مصدر هذه الإشاعات فقد كان يعجبها أن تلقي على نفسها ظلال الثقافة والسياسة. وكانت تريد أن ترهب من يهاجم المسرحية ، والطريف أنها أقسمت - حين سمعت بمهاجمتي للمسرحية - أنها سوف تضربني لو وجدتني في مسرحها مما دفعني إلى حضور المسرحية مرتين دون جدوى إذ إنها لم تضربني للأسف! - ورغم التقييم العام بأن السلطة السياسية لم تكن أرفع مستوى من عقلية تحية كاريوكا ، إلا أن الدهشة ظلت لا تفارق المثقف الشريف ضمير الشعب المصري - وربما مثل الدهشة أمام الموت رغم أنه قديم وحق - تلك المسرحية ترمي إلى إشاعة حالة مرضية من الشفقة على النفس لدى الشعب المصري المتعب المجروح المخذول موهمة إياه أن المصائب جاءته بسبب انغماسه وتعاونه العربي ، وذلك بقصد تحويل إصبع اتهامه إلى صدر العروبة بديلاً عن صدر السلطة المصرية المهزومة ، المسئولة حقًا وفعلاً بقيادة جمال عبد الناصر عن نكبات الشعب المصري .

كانت بطاقات المسرحية تصل إلى خمسة جنيهات وما فوق ولم يكن لجماهير مصر الفقيرة أن تدفع ربع هذا المبلغ الباهظ ، ولذلك قررت إدارة التليفزيون عرضها على شاشتها حتى قبل أن ينتهي العرض إمعانًا في نشر الرسالة الضالة المضلة على أكبر عدد من الناس . والغريب أن بعد كل هذا الاحتفاء من سلطة عبد الناصر ومراكز قوته بتحية كاريوكا ، وفايز حلاوة ، وجدناهما حين أطاح السادات بمراكز القوى يخرجان مع من خرجوا من تحت إبطي السادات لاعنين سابين مراكز القوى ، وأصبحا مع من أصبحوا من أعلام الثقافة في عصر "ثورة!" مايو الساداتية ، ولكن لا

عجب . . ألم يكن السادات نفسه مركزاً من مراكز القوة في سلطة عبد الناصر ، وأحد الرؤساء في الحزب الطليعي السري الذي أنشأه عبد الناصر سريًا على الشعب المصري حتى يطوقه من كل منفذ! فبينما كان محظوراً على الشعب أن ينشئ تنظيمًا سريًا ضد الحكومة أباحت الحكومة لنفسها إنشاء التنظيم السري[1] ضد الشعب ، مستمرة في سرقة الشعب دوره وحقوقه على كل شكل .

في نفس الوقت منعت السلطة السياسية وعوقت الكثير من مسرحيات القطاع العام ـ الذي كان لا يزال يتعامل مع بعض الكتاب الشرفاء الموالين لشعارات عبد الناصر الخاصة بالاشتراكية والتقدمية ، والمعارضين للواقع الكاذب الذي لا يحقق اشتراكية أو تقدمية أو نضالاً شعبيًا أو نظاميًا . وكان من هؤلاء الكاتب المسرحي اليساري ميخائيل رومان الذي قدم مسرحية " العرضحالجي ـ الزجاج " وأوقف عرضها لاشتداد حدة تفاعلها مع جمهور المشاهدين حيث كانت صرخة ضد الزيف والهوة الواقعة بين القول والفعل . أما مسرحية الشاعر نجيب سرور " آه يا ليل يا قمر " وصرختها :

" مصر يا أمة يا منكوية دايمًا
بالخيانة ، والخناجر في الضهور . . . " .

فقد كانت هدفًا لهجوم منسق من قبل نقاد وكُتاب الحزب الطليعي السري لارتفاع نغمة الحزن بها[2] ! ولم يرحب كُتاب الحزب الطليعي السري ـ مع ترحيبهم بياسين ولدي إلا بمسرحية غريبة ـ مريبة كذلك ـ لعبد الرحمن الشرقاوي اسمها " وطني عكا "[3] . عكست منذ 1969م خط الدعوة للسير حثيثًا نحو الصلح والاعتراف بإسرائيل .

---

(1) كان محظوراً على الشعب أولاً أن ينشئ تنظيمًا علنيًا يقوم بمهمة المعارضة .
(2) انظر ملحقات رقم (1) .
(3) انظر ملحقات رقم (2) .

في هذا الطقس الذي استمر منذ 1967م إلى هلاك عبد الناصر . كان كل الصادقين من أبناء مصر يشعرون أن دفة الأمور لم تكن تسير وفق ما يجب أن يكون، كنا جميعًا نشعر أن علينا أن نستعد بتكريس كامل جاد للردّ على هزيمة 5/ 6/ 1967م كنا نؤمن ـ مع كل الشعب ـ بضرورة تكوين جيش لخوض حرب شاملة "صادقة" تؤدي فعلاً حقيقيًا ضد العدو بلا استعراض واجهات تجارية كاذبة، وكنا نرى بوضوح أن سياسة عبد الناصر وإجراءاته تجري في اتجاه مضاد لما يريده الشعب المصري المخذول. كنا نرى "السياحة السياسية" مستمرة تمامًا كما كانت قبل الهزيمة، وكان عبد الناصر يتكلم في النهار عن النضال وما يجب أن يسترد بالقوة، وفي النهار أيضًا كانت سلطات قمعه تحرق كل بذور ونوايا النضال، وكان محمد حسنين هيكل يخرج لنا كل جمعة بأفيون صراحته، يغالط في ضوء الشمس كل الحقائق الصارخة ويقول: "إننا لا نستطيع أن نحارب مثل فيتنام لأن فيتنام دولة فقيرة وشعبها بدائي وليس لديه ما يخسره، أما شعب مصر فشعب عريق لديه السد العالي والأهرامات ولا يجب أن يعرضها للدمار والنسف بدخولها حربًا مثل حرب فيتنام" ــ انظر مقالات هيكل بالأهرام ما بين 6/ 1967 إلى 12/ 1967م ـ واستمر هيكل يركز على الحل السلمي وفقًا لقرار 242 ـ المعترف بإسرائيل ـ وأن الحرب الوحيدة الممكنة هي حروب استنزاف لفرض الحل السلمي، وكان يقدم منطقًا تعجيزيًا يوهن من عزيمة الشعب المصري بقوله: "إنه لا يمكن الحرب ضد إسرائيل لأن الحرب معها تعني الحرب مع أمريكا، ونحن لا يمكن أن نناطح أمريكا، واخترع خرافة اسمها "تحييد أمريكا"!

كانت مقالات هيكل السامة دائبة السعي لإنهاك معنويات الشعب المصري وسحقها، وكان يبدو في مقالاته ديناصوراً ساديًا كريهًا لكنه كان يرضي بمقالاته وروحه هذه الكثير من شرائح المثقفين المهزومين والثوريين مع وقف التنفيذ ـ "بتوع نضال آخر زمن في العوامات" كما وصفهم الشاعر نجم ـ وكانت هذه الشرائح

ـ بطبيعة ذاتية أنانية ـ تبحث وسط الخراب عن المكسب الذاتي والمصلحة الشخصية، وكانت ترى في راية الكفاح الشعبي ومواصلة الاستعداد للدفاع من أجل استعادة كل الأراضي المحتلة بالقوة. كانت ترى في هذه الراية ما يهدد استقرارها وراحتها، لذلك قامت هذه الشرائح بتبني مقولات هيكل، وصورته في هيئة الرجل العاقل الواقعي غير المتهور، إذ وجدت في صراحته الكاذبة صياغة رائعة لما يجول في ضمائرها ويخدم أهدافها ـ كان أهم ما أبدع فيه هيكل هو إعلانه أننا انتصرنا في الحقيقة ـ رغم خسارة الرجال وضياع الأرض ـ ونصرنا هو أن نظام عبد الناصر لم يسقط وبالفعل صرنا نحتفل بعبد الناصر رغم الهزيمة!.

إلى جانب شرائح محمد حسنين هيكل الثقافية، وثقلهم الديناصوري على أنفاس الشعب المصري. بدأت شرائح الشعب المستضعف والمثقفين الصادقين يجدون حزنهم وآلامهم وكبتهم يتبلور ويتم التعبير عنه بقوة وجرأة من قبل كيان فني مفاجئ فرض نفسه على الأوساط الثقافية والسياسية رغم أنف الجميع. فلقد بدأت الأغنيات السياسية للكيان الفني أمام ـ نجم[4] تظهر، لتفرض صراحة كل ما يزفر به صدر الشارع المصري. وبدت هذه الأغنيات كسلاح قوي ـ في جبهة المقاومة الثقافية ـ يدحض مغالطات هيكل وصوت سيده. وبدأ كل مغتاظ يقرش تحت أضراسه:

"بصراحة يا أستاذ ميكي... (المقصود هيكل)
إنك رجعي وتشكيكي
قاعد لا مؤاخذة تهلفط
وكلامك رومانتيكي
ولا ناوي تبطل تكتب

(4) انظر ملحقات رقم (3).

بصراحة كلام بولوتيكي
عن دور الحل السلمي
واستعماله التكتيكي
في الوقت اللي احنا صراحة
دايخين دوخة البلجيكي
وبلدنا لسه جريحه
وبتصرخ بالأفريكي :
لو بات التار يا اولادي
حيبات الذل شريكي
والشعب يقول يا بلادي
بالروح والدم افديكي
وحاجات بصراحة بتحصل
في بلدنا يا أستاذ ميكي
بصراحة لا انت معايا
ولا طالل من شبابيكي
وكأنك مثلاً موميا
للسلطان الأنتيكي
أحياها لاستعمالها
الاستعمار الأمريكي
رجعت على هيئة :
ميكي ! "

* * *

وأغنية تسخر من صحافة عبد الناصر بأكملها وتوسمها الخير في مجيء نيكسون بعد ذهاب الرئيس الأمريكي جونسون :

" قولوا هأ أو أو قولوا هاء
على صحافتنا الغير غراء
ا با تا ثا ج ح ألف باء
جونسون روح
نيكسون جاء ! "

مع أغنية تصرخ بالاحتجاج على مقولة : النصر رغم الهزيمة ! . . .

" ايه يعني شعب في ليل ذله
ضايع كله
ده كفاية بس لما تقول له :
إحنا الثوار !
وكفاية أسيادنا البعدا
عايشين سعدا
بفضل ناس تملا المعدة
وتقول أشعار .
أشعار تمجد وتماين
حتى الخاين
وإن شاء الله يخربها مداين
عبد الجبار ! "

كان المقصود بـ " عبد الجبار " عبد الناصر . وسمع عبد الناصر هذه الأغنيات وهاج وقال لشعراوي جمعة : " ناس بتقول الكلام ده ولسه واقفه على

رجليها؟! " . وقرر شعراوي جمعة إلقاء القبض على الشيخ إمام والشاعر نجم ـ مع نعتهما بالشيوعية ـ وسجنهما مدى الحياة بلا محاكمة عقوبة لهما على التعبير عن آلام الشعب المصري .

وقتها اقترح هيكل علاجًا خسيسًا أفضل وهو احتواؤهما وإفسادهما بالمال والشبع حيث قال : "دي صرخة جوع شبعوهم! " ، وفعلاً جرت محاولات لتقديمهما في الإذاعة والتليفزيون ، ونشرهما من خلال أصوات فايدة كامل ، محمد رشدي ، ليلى نظمي! وصاحب ذلك موجة ساخنة تكتب عنهما في صحف السلطة بحماس . أبرزها كتابات رجاء النقاش الذي كان واسطة تنفيذ مخطط السلطة لاحتواء الفنانين المعدمين . . لكن ما لبث المولد أن انتهى عند اكتشاف أن "إمام ـ نجم" صعلوكان لا أمل في احتوائهما ، وأنهما ما زالا مستمرين في كتابة وغناء آلام وأوجاع الشعب المصري بأسلوب نقد لاذع سافر موجه في تركيز واضح ضد السلطة المهزومة . وبناء على ذلك تم تنفيذ القرار ، ودخل إمام ونجم السجن مدى الحياة . . لكنها كانت مدى حياة عبد الناصر التي لم تستغرقهم غير ثلاث سنوات في السجن . . أخرجهما بعدها أنور السادات مطلقًا سراحهما . . لكنه عاد واعتقلهما بعد شهور حين استمرا يعبران عن حس الشعب المصري الذي لا يخيب ، والذي أدرك ـ على الفور ـ أن السادات ليس سوى تكملة لمشوار عبد الناصر في إرهاق الشعب المصري بالزيف والكذب . . والشعارات المراوغة الطنانة . . وبالقمع . . والقهر . . سياسة مستمرة . . فلا يوجد في الواقع أي تناقض بين نظام عبد الناصر والسادات . . ولكنهما حلقتان متتابعتان في خيط واحد يبدأ منذ سرقة ثورة الشعب المصري ليلة 23 يوليو 1952م ، ثم سرقتها مرة أخرى عام 1954م .

* * *

وتعجب للناصريين الذين يتبجحون اليوم بإدانة إجراءات 3 سبتمبر 1981م

السوداء دون إدانة إجراءات مذبحة الاعتقالات في صيف 1965م الأسود.. ويتبجحون برفض اتفاقية كامب ديفيد ـ راكبين موجة الرفض الإسلامي ـ وتسألهم: أليس قرار 242 هو القرار الذي قبله معبودكم عبد الناصر؟ وما كامب ديفيد إلا تكملة المشوار الذي بدأه زعيمكم ذو الخوار! ويبكون متمسحين حبًا في خالد الإسلامبولي، وتربد وجوههم التمساحية عندما تشير إلى أكفهم المضرجة بدماء الشهيد الوضيء سيد قطب والشهداء اخوته الآباء الشرعيين للبطولة الفذة التي تجلت في فدائيتهم حين قاموا يهتفون للروح الإسلامية المنتصرة:

"في سبيل الله قمنا"
"نبتغي رفع اللواء"
"لا لحزب قد عملنا"
"نحن للدين الفداء!"

وسوف "يهلضم" الناصريون ردًا على تساؤلك ولن تفهم منهم وسط الشقشقات والطقطقات ـ والبلطجة معظم الوقت ـ إلا نفس الطنين الناصري المعهود والضجيج الذي بلا طحن أو طحين.

وإنا لله وإنا إليه راجعون وعدًا حقًا.

صافيناز محمد كاظم

القاهرة: 1/ 1403هـ
10/ 1982م

* * *

ملحقات :

1. أمل دنقل : شاعر الرؤية الموجعة
2. عبد الرحمن الشرقاوي : شاعر الرؤية المضللة
3. الكيان الفني إمام . نجم : رؤية النبض الشعبي

1. أمل دنقل: شاعر الرؤية الموجعة

في 1967م اخترعت السلطة المهزومة لنا شعار "هذه ليست ساعة للحزن.. بل ساعة للعمل"، وكان هذا الشعار يحمل في طياته إرهابًا لمن يضبط متلبسًا بـ"الحزن" أكثر مما حمل من نية "عمل" على الإطلاق، وكان علينا أن نتخفى بأحزاننا ونهربها في النكات لكن المشكلة كانت في الشعر والشعراء!

لم يكن ممكنا للشاعر الصادق ـ أيًا كان منطلقه ـ أن يخفي أو يتخفى بل على النقيض كان عليه أن ينفذ ـ ببصيرته إلى عمق الـ"آه" المكلومة في قلب الشعب ليصقها في حنق على وجه: "أشعار تمجد وتماين.. حتى الخاين".

وهكذا خرج أمل دنقل بـ"البكاء بين يدي زرقاء اليمامة" وخرج أحمد فؤاد نجم بـ"ناح النواح والنواحة" ومعهما كان نجيب سرور قد صرخ "آه يا ليل يا قمر" على طول وعرض المسرح. وبالطبع لم تسمح رقابة السلطة المهزومة وقتها بنشر قصائد الشاعرين لأنها كانت قصائد من "أوراق الشعب المصري السرية" وهذه أوراق لم تكن ـ وإلى الآن ـ موضع اهتمام أي من "ثوار" ومناضلي السلطة المهزومة عام 1967. فهؤلاء "الثوار" كانوا يؤكدون أن ما حدث في 1967 هو انتصار وليس هزيمة.. لأن مصر لم تخسر سوى أرض وعدد من آلاف الرجال لا أكثر، أما الهزيمة فلا تكون إلا عندما تمس شعرة من رأسهم هم فقط ـ أفراد وحاشية سلطة 1967م المهزومة.

ولم تكن ممكنا أن أقرأ قصيدة أمل دنقل إلا عندما أعطاها لي سرًا في الشهر الثاني من 1968م وقلت له سأحاول أن أهربها للنشر في مقالي بمجلة المصور . قال أمل بيأس : مستحيل ، المنع صريح . قلت له : "عندنا رقيب مصري أولاً وموظف ثانيًا وسأقنعه بأن التعليمات تمنع نشر القصيدة لكنها لم تنص على منع ما نكتبه عن القصيدة" . وفعلاً كتبت مقالاً نشر بمجلة المصور في 29/ 3/ 1968م بعنوان مخالف لعنوان القصيدة الممنوع مأخوذ من صلبها وكان يعبر عن النظرة الصامتة في عيون الشعب المصري المخذول :

"تكلمي لشد ما أنا مهان"

لم تكن قيمة قصيدة "البكاء بين يدي زرقاء اليمامة" فقط في تفوقها وتكاملها الفني ، ولكن في توقيتها وما تعطيه من دفقة حزن عتية تحسها محمولة بملايين الأصوات . . ملتحمة كتلة خشنة وشديدة الرقة . . غائرة الجرح وكاملة الوعي وتبدأ بصورة الرجال الذين شربت الصحراء دماءهم :

"أيتها العرافة المقدسة ،
جئت إليك مثخنًا بالطعنات والدماء ،
أزحف في معاطف القتلى ،
وفوق الجثث المكدسة ،
مغبر الجبين والأعضاء ،
أسأل يا زرقاء عن فمك الياقوت ،
عن نبوءة العذراء ،
عن ساعدي المقطوع وهو ما يزال
ممسكًا بالراية المنكسة :

عن صور الأطفال في الخوذات
ملقاة على الصحراء :
عن جاري الذي يهم بارتشاف الماء
فيثقب الرصاص رأسه في لحظة الملامسة
أسأل يا زرقاء عن وقفتي العزلاء
بين السيف والجدار ،
عن صرخة المرأة بين السبي والفرار
كيف حملت العار ـ
ثم مشيت دون أن أقتل نفسي
دون أن أنهار
ودون أن يسقط لحمي
من غبار التربة المدنسة .

. . . .

تكلمي بالله (باللعنة بالشيطان)
لا تغمضي عينيك فالجرذان تلعق
من دمي حساءها ولا أردها .
تكلمي لشد ما أنا مهان .
لا الليل يخفي عورتي ولا الجدران
ولا اختفائي في الصحيفة التي أشدها
ولا احتمائي في سحائب الدخان ـ
تقفز حولي طفلة واسعة العينين
عذبة المشاكسة : (كان يقص عنك

يا صغيرتي ونحن في الخنادق
فنفتح الأزرار ساعة ونسد البنادق
وحين مات عطشًا في الصحراء المشمسة :
رطب باسمك الشفا اليابسة
وارتخت العينان) ـ
فأين أخفي وجهي المتهم المدان
والضحكة الطروب ضحكته ،
والوجه والغمازتان" .

الخلفية في القصيدة مستمدة من قصة زرقاء اليمامة فتاة جديس في الجاهلية التي كانت تبصر الشيء على مسيرة ثلاثة أيام ، وحدث أن أبصرت يومًا ما يشبه أشجاراً تسير ببطء في اتجاه مدينتها ، وعندما أخبرت قومها أنها إبل أعداء قادمين تسير وئيدة متخفية تحت أفرع الأشجار سخروا منها واتهموها بالخبل ، وعجز الرؤية . لكنهم فوجئوا بعد أيام بوقوعهم في قبضة الأعداء وعرفوا ـ بعد فوات الأوان ـ صدق ما حذرتهم به زرقاء اليمامة التي فضلت أن يفقأ الأعداء عينيها على أن تسخرهما لخدمتهم .

" زرقاء اليمامة " في قصيدة " أمل " هي بصيرة الطليعة الواعية الصادقة ، والمتكلم في القصيدة هو من فلول العائدين المهزومين . جرحى القلب والجسد بعد المعركة المخادعة . المتكلم يبكي بين يدي " الرؤية " التي نبهت ـ قبل المصائب ـ إلى شواهد كان لابد أن تقود إلى هزيمة لكن أحداً من السلطات الذاتية الفردية اللاهية لم ينتبه .

الصوت الذي يقدمه الشاعر ليس مفرداً بل هو الحشد الذي يضم غالبية البسطاء من الشعب الذين تعانون الإدراك بأن الصحراء ليست هي وحدها التي شربت دماء

الرجال . . لا ! لقد شاركتها السلطة في الوليـمة الدسـمة وشـربت من دمـاء الرجـال ـ قبلها ـ قسطها الوفير :

" أيتها العرافة المقدسة ،

لا تسكتي فقد سكت سنة فسنة

لكي أنال فضلة الأما .

قيل لي : " اخرس " !

فخرست وعميت وائتممت بالخصيان .

ظللت في عبيد " عبس " حرس القطعان . .

أجتز صوفها ، أرد نوقها ،

أنام في حظائر النسيان . .

طعامي الكسرة والماء وبعض التمرات اليابسة .

أنا الذي ما ذقت لحم الضأن

أنا الذي لا حول لي أو شأن

أنا الذي أقصيت عن مجالس الفتيان . .

أدعى إلى الموت ولم أدع إلى المجالسة !

. . . . . .

تكلمي . . تكلمي ،

فها أنا على التراب سائل دمي

وهو ظمي

يطلح المزيدا .

أسائل الصمت الذي يخنقني . .

ما للجمال مشيها وئيدا

أجندلاً يحملن أم حديدا
فمن يا ترى يصدقني . .
أسائل الركوع والسجودا . . . !

" البكاء " الذي حرمته التعليمات على الشعب تطرحه القصيدة سميكًا سمك الدم ولونه وثقله الدموع نزيف وئيد غال . . حرام . . فهي ساعة للحزن . . ساعة للحزن . . لا فرار . . مرة بسبب الهزيمة وخرابها الواقع ، ومرة بسبب الكذب والدجل لإخفائها وتحويرها والهروب من مواجهة تبعاتها . .

" ونحن جرحى القلب والروح والفم
لم يبق حولنا إلا الحكام والدمار
. . . . . .
وأنت يا زرقاء ،
وحيدة عمياء ،
وما تزال أغنيات الحب والأضواء ،
والعربات الفارهات والأزياء ،
فأين أخفي وجهي المشوها
كي لا أعكر الصفاء الأبله المموها ! "

وكان لابد لـ " العربات الفارهات والأزياء " في زمن الدم والعار 5/ 1967م أن تقود إلى مزيد من " العربات الفارهات والأزياء " ومزيد من أزمنة للدم والعار 18/ 11/ 1977م زيارة السادات للكيان الصهيوني وما بعدها . . فكل ثمرة تأتي من صنف غرسها وطبيعة بذرتها .

* * *

2. عبد الرحمن الشرقاوي شاعر الرؤية المضللة

عام 1968م ـ أي بعد هزيمة 5/ 6/ 1967م بعام واحد ـ كتب عبد الرحمن الشرقاوي مسرحيته "وطني عكا" وفي الموسم المسرحي 69ـ70 قدمها المسرح القومي عرضًا مسرحيًا من إخراج كرم مطاوع.

وقد سبب لي النص الذي قرأته والعرض الذي شاهدته لـ"وطني عكا" في ذلك الوقت ـ 11/ 1969م ـ حالة اندهاش وصدمة وغضبًا شديدًا، إذ برز أمامي وقتها اعتراضان:

الأول: مرتبط بمدى الشعر في شعر المسرحية الركيك في لفظه وتركيبه وإيحاءاته وتوظيفه للموقف والخط المسرحي.

الثاني: سياسي.. مرتبط بالرسالة الفكرية أو السياسية التي تطرحها المسرحية.

وأتذكر أنه رغم قوة بروز الاعتراض الأول بدا الحديث عنه أمامي نوعًا من الترف حين وضعت حجمه في نسبة مع الخطورة التي مثلها الاعتراض الثاني.. وهو ما طرحته المسرحية من مغالطات وأفكار حول موضوع فلسطين وصراع العرب ضد الصهيونية ـ غير متكلمين عن تصحيح الطرح حيث إنه صراع بين الإسلام ضد الصهيونية والصليبية متكاتفين.

في ذلك الوقت كنت ـ رغم كل الانهيارات ـ بريئة الذهن حسنة الظن جداً فتصورت أن ما طرحه الشرقاوي من افتراضات ـ منحرفة وخطرة ـ كان مجرد خطأ وقع فيه ـ بحسن نية ـ بسبب ما أسميته "ليبراليته الميلودرامية" أو بسبب جهله بحقائق موضوع العدوان على عرب فلسطين المسلمين.

ولكن موقفه فيما بعد في تأييده خط الصلح الكامل مع إسرائيل الذي انتهجه السادات، وتطابق المغالطات التي طرحها الشرقاوي عام 1969م في المسرحية مع المغالطات التي دأب السادات وإعلامه على ترديدها حول قضية فلسطين وعلاقاتنا بالكيان الصهيوني المغتصب جعلني أكتشف أن عبد الرحمن الشرقاوي لم يكن واقعًا في خطأ ـ كما حسبت ـ ولكنه ـ بكامل قواه العقلية والأيديولوجية ـ كان متبنيًا لتلك المغالطات، وداعيًا لنظرة الأحزاب الشيوعية العربية الشوهاء المجرمة التي ظلت تعتقد بوجود شعب طيب في "إسرائيل" تحكمه قلة رجعية لا تمثل الغالبية، وأنه لو تغير نظام "إسرائيل" ـ يقصدون الكيان الصهيوني ـ من الرأسمالية إلى الماركسية فسوف تنعدل الأمور وتنتهي المشكلة. أي أن الشرقاوي كان يعبر ـ ولا شك أنه نجح في التعبير ـ عن رؤية شوهاء لمستقبل أهم وأوضح قضية من قضايانا على المستويين القومي والإسلامي.

تبدأ مسرحية "وطني عكا" بحازم يروي في تمهيد قصة ضياع الأرض فيقول: "إنكم لم تعرفوا المأساة حقًا. . . " ـ وتحسب أنه سيقول فعلاً ما لم يوضع من قبل في إطاره السليم. إن المأساة تبلورت بدايتها منذ وعد بلفور 1917م، وكيف تكونت فكرة الصهيونية التي تعتبر اليهودية جنسًا وقومية. كيف تكونت بحركتها الدائبة المواجهة لتقويض الإسلام ـ لا سمح الله ـ ومهاجمته على أرضه. وكيف اعتمدت على الاستعمار الصليبي الجديد الذي تحمل لواءه الآن الولايات المتحدة. كيف أنها لصيقة بالأمبريالية العالمية مستفيدة منها، ومدعمة بها، وخادمة لأغراضها. . لكنها

لم تكن أبداً ضحيتها أو متورطة معها ـ لكننا نرى بطل الشرقاوي "حازم" هذا يردد ـ لا يزال ـ الخطابة القديمة والرؤية المسطحة بأن المأساة بدأت 1948م بهزيمة النظم العربية أمام الجيش الصهيوني الصغير ـ لاحظ أن 1948م صارت كذلك لا يتم ذكرها الآن . . فالحديث كله صار عند الثوار الناصريين والعلمانيين يبدأ بإزالة آثار العدوان عام 1967م ـ ووصل عند النظم العربية الحالية إلى إدانة مذابح صابرا وشاتيلا 17/ 9/ 1982م! .

ويبدأ الشرقاوي في تقديم افتراضات ـ ليس لها أي مبرر مادي ـ لنماذج من العسكرية الإسرائيلية يفترسهم تأنيب الضمير صبيحة انتصارهم واستيلائهم على الأراضي العربية عام 1967م، ويظهرون كلهم كضحايا تضليل الصهيونية حتى الذي شارك في تكوين تنظيم لشباب الصهيونية في لندن! ـ لاحظ الدس لإيجاد شعور بأن هناك فارقًا بين الصهيونية وبين دولة إسرائيل! ـ ويصل تأنيب الضمير بواحد منهم اسمه "مارسيل" ـ وهو فرنسي الأصل ـ إلى أن يعود إلى فرنسا بالرغم من الصعاب التي تنتظره هناك، وترغمه على العودة إلى إسرائيل .

وخلال ذلك لا ينسى الشرقاوي أن يقدم لنا كذلك شخصية صحفية فرنسية اسمها "إيمي" جاءت لتكتب عن المقاومة الفلسطينية لكنها تحكي لنا عن "جندي إسرائيلي حر سئم الحب ففر، ومات الجندي المسكين وكانت آخر كلمات أطلقها "فليحيا الإنسان صديقًا للإنسان . . " ـ وهذا المقتطف بين الأقواس من نص المسرحية .

وعندما نصل إلى المشهد الأخير يصور لنا الشرقاوي نضج وكثافة ما ادعاه ـ طوال المسرحية ـ من الأصوات الحرة التي ارتفعت داخل إسرائيل وتأثيرها في الموقف الحاسم، وعندما يأمر الضابط الإسرائيلي "يعقوب" بنسف القرية العربية إذا لم تسلم الفدائيين فيتقدم الضابط الإسرائيلي الحر "سلامسكي" معترضًا في غضب وثورة على أمر قائده "يعقوب" ـ ولا يضربه يعقوب بالرصاص كما هو متبع في

مخالفة الأمر العسكري أثناء معركة بل يجادله بالحسنى! ـ ونجد ضابطًا إسرائيليًا آخر (حرًا) كذلك اسمه "سعد هارون" ـ من يهود فلسطين القدامى ـ يؤيد معارضة "سلامسكي" متخذًا أسلوبًا دينيًا كهنوتيًا في التعبير عن رفضه لأمر الضابط "يعقوب" بنسف القرية العربية.

وفي هذه اللحظة نفسها ـ والشرقاوي يصور لنا الأصوات الحرة في إسرائيل تعارض وتمنع الذبح والنسف والقتل، وهي تبدو متغلبة ومنتصرة على التيار المعادي للعرب في هذه اللحظة بالذات يدخل الفدائي الفلسطيني "أبو حمدان" بالمفرقعات وبخدعة ساذجة يستطيع أن يقنع الفرقة العسكرية الإسرائيلية ـ التي تبدو طيبة وإنسانية إلى درجة السذاجة ـ يقنع الفرقة بالالتفاف حول صندوق المفرقعات فينفجر ويقتل الفرقة العسكرية كلها.. ويضاء المسرح ونرى الفرقة الإسرائيلية الإنسانية جثثًا مبعثرة على الأرض.. أشلاء الأصوات الإسرائيلية (الحرة) التي قتلها الفدائي الفلسطيني!

وبهذا يصل الشرقاوي ـ بمدلول اللغة المسرحية المرسلة مع هذا المشهد ـ إلى أن المقاومة الفلسطينية إنما تقتل بأعمال (العنف) الأصوات الحرة التي نكسبها داخل معسكر الأعداء! وبذلك يخلص حضرته إلى إدانة المقاومة لصالح تلك الأصوات الحرة المزعومة التي يدعى وجودها في داخل الكيان الصهيوني المعتدي، والتي تدعونا المسرحية إلى الاعتراف بها والتعاون والتعاطف معها وفق خطة رؤية تضللنا طيلة العرض المسرحي.

الذي يرضيني قليلاً الآن أنني ـ حتى وقت افتراضي حسن النية في ضمير الشرقاوي ـ لم أسكت له على الخطأ النابي الذي بدا ـ عام 1969م ـ موجعًا نشازًا، وكتبت نقدًا للمسرحية بعنوان "الجدوى واللا جدوى في المسرح عن المقاومة، ثم الشرقاوي والميلودرامية الليبرالية" ونشر هذا النقد بعدد مجلة المصور الصادر في

19/ 12/ 1969م وركزت فيه على حقيقة من الحقائق التي كان علينا ـ وما زلنا ـ أن نواجهها وهي أنه حين رفعت السلطة في مصر شعار "اعرف عدوك" قبل وبعد الهزيمة كان لابد أن ندرك أننا بحاجة ملحة إلى رفع شعار يسبق الشعار الأول ويمهد له وهو "اعرف قضيتك" . إذ لابد لنا أن نعترف بأن الكثير من سواد الناس ومن المثقفين ظلوا على ما قبل هزيمة 1967م يرزحون تحت سحابة من الأمية السوداء في كل ما يختص ويتعلق باغتصاب فلسطين . . لا يعرفون على وجه الدقة الكثير من الجوهري والأساسي في ملابسات وظروف ونوعية نشأة وتطور التسلل الصهيوني إلى الأرض الإسلامية وإلى عقلنا قبل الأرض .

وبناء على هذه "الأمية" ظل الاحتكاك بقضية فلسطين مشوشًا غائصًا في لجج من الخزعبلات . . ونتج عن ذلك حالتان نقيضتان في المظهر . . لكنهما شيء واحد في تأثيرهما النهائي :

أولاً: حالة الاندفاع العاطفي المعبئ لكراهية عمياء من السهل محوها ولا يمكن توظيفها بديلاً عن كراهية مستنيرة واعية مرتكزة على أسباب وواقع عدواني قائم لا يمكن محوها إلا بمحو أسبابها ، والواقع العدواني المستندة إليه .

ثانيًا: حالة رد الفعل والسخط على ما جرته علينا حالة الكراهية العمياء من اندفاع عصبي أعمى ، وأخذت الحالة الثانية شكلاً ـ أعمى بدوره ـ من سعة الأفق والعقلانية ومع جهلها وتجاهلها للواقع العدواني للكيان الصهيوني وبمبالغاتنا في تفادي الوقوع في الكراهية العمياء ، وقعت في تقدير مبالغ فيه لإمكانيات العدو الفكرية والبشرية والتنظيمية والديمقراطية تقديرًا يحط من معنوياتنا على الجانب الآخر ، ويحور الصراع من أساسه إلى المقولة المتميعة بأن الصراع من إسرائيل في الواقع صراع حضاري! ، وأن علينا أن نجتهد للحاق بالبناء الشاهق للحضارة المتمثل في الكيان الصهيوني . . بحيث تنتفي وتلغي تمامًا استعدادات المواجهة

العسكرية ـ الحتمية أن لم يكن من جانبنا فمن جانب الدولة الصهيونية، كما دللت الأحداث المأساوية في لبنان، وبعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد للسلام المزعوم! ـ ونكرس جهودنا في الصراع والتحدي الحضاري بيننا وبينهم في القصة والشعر والرقص والغناء ـ فقط ـ أن أي تنافس نووي أو علمي سوف ينسف ويضرب بقسوة من قبل الدولة الصهيونية المتحضرة، ونسف مفاعل بغداد النووي واغتيال العالم الشهيد الدكتور "المشد" ماثلان أمامنا منذ البارحة!.

وارتفعت أصوات مَن ركبتهم هذه الحالة بمغالطة منطقية غريبة وهي أن هناك أصواتًا حرة داخل إسرائيل تنطلق من إطار ديمقراطي وبمساعدة هذه الأصوات يمكن أن تنجح في تشكيل تيار عام يؤنبه ضميره لما اقترفته إسرائيل من جرائم ضد العرب.

لاحظ داخل الكيان الصهيوني ننجح نحن في تشكيل تيار لصالحنا، ولعنا لا ننسى المفارقة في أن الكيان الصهيوني ـ للأسف ـ هو الذي نجح في تشكيل تيار عام داخلنا نحن لصالحه! انظر خريطة النظم العربية.

وكما خلق لنا المنطق الأول الأعمى ـ الذي رسخه عبد الناصر في النفوس قبل النكسة ـ الوسادة التي نام فوقها البعض بأننا سندخل تل أبيب بقيادة عبد الناصر الحبيب كذلك خلق لنا المنطق الثاني ـ المزيف لواقع إسرائيل العدواني بأن هناك أصواتًا حرة داخل الكيان الصهيوني ـ خلق لنا وسادة حلا ـ ويحلو ـ للبعض أن ينام بدوره فوقها منتظرًا عدونا الذي سوف يأتي تائبًا معتذرًا ناقدًا نفسه ـ نقدًا ذاتيًا ـ لما ارتكبه في حقنا من جرائم لأنه كان مضللاً ثم أفاقًا ـ وتولد هذا المنطق منذ عهد عبدالناصر بعد الهزيمة وتسلمه محمد أنور السادات وبلورة وحمله على عاتقه إلى الكنيست الصهيوني 19/ 11/ 1977م ـ حيث تحدث وصافح وعانق وغرق في حب

ديان وجولدا مائير . . إلخ . . وحيث وجدنا مناحم بيجن بعدها تبلغ به التوبة ويبلغ به الندم إلى حد إقامة المذابح لإبادة اللبنانيين والفلسطينيين المسلمين منهم على وجه الخصوص حفظًا لود الصراع الحضاري والحوار الثقافي بينه وبين "محمد" أنور السادات! .

الأمر الذي يجدر الإشارة إليه بعد هذا كله أن مسرحية "وطني عكا" ـ برؤيتها الخائنة ـ لقيت وقت عرضها احتفاء وتكريمًا وتدعيمًا من السلطة السياسية الناصرية ـ التي احتفت من قبل بـ "ياسين ولدي" ـ إذ حضر العرض خبراء السلطة السياسية وأبدوا إعجابهم الشديد بالعرض، ورضاهم الكامل عن الرؤية السياسية . بل إن المفارقة الكبرى كانت التكريم الكبير الذي جاء من قبل بعض ممثلي المقاومة الفلسطينية الذين قدم "أبو إياد" باسمهم درع المقاومة جائزة تقديرية للمخرج كرم مطاوع، والمؤلف عبد الرحمن الشرقاوي عن عملهما ذاك الشائن .

* * *

3. الكيان الفني "إمام . نجم" : رؤية النبض الشعبي

يوم أعلنت الهزيمة باسم النكسة في يونيو 1967م وجد "أحمد فؤاد نجم" نفسه يتقيأ دمًا . . ومع هذه الحالة الجسمانية المفاجئة جلس ليكتب قصيدته الشهيرة التي كلفته قراراً بالاعتقال مدى الحياة عام 1968م :

الحمد لله خبطنا تحت باطنا
يا محلى رجعة ظباطنا من خطر النار !
. . . . . .
يا أهل مصر المحمية بالحرامية
الفول كتير والطعمية
والبر عمار
والعيشة معدن واهى ماشية
آخر آشيه
ما دام جنابه والحاشية
بكروش وكتار .
حاتقوللي سينا وما سيناشي
ماتدويشناشي

ماستميت أتوبيس ماشي

شاحنين أنفار .

إيه يعني لما يموت مليون

أو كل الكون

العمر أصلاً من مضمون

والناس أعمار .

إيه يعني في العقبة جرينا

والا ف سينا

هي الهزيمة تنسينا

إننا أحرار ؟

آيه يعني شعب في ليل ذله

ضايع كله

ده كفايه بس اما تقول له

إحنا الثوار

وكفايه أسيادنا البعدا

عايشين سعدا

بفضل ناس تملا المعدة

وتقول أشعار .

أشعار تمجد وتماين

حتى الخاين

وإن شا الله يخربها مداين

عبد الجبار !

وكان طبيعيًا أن تخرج القصيدة الترجمة الفورية لقدر عنيف من الغضب والألم أحسه الشعب المصري واستنزف من جوف الشاعر الدم .

وعندما تسللت القصيدة إلى الناس تسللت معها عشرات القصائد السياسية المغناة : "بقرة حاحا" ، "ميكي" ، "يعيش أهل بلدي" سخرية من الصيغة المزيفة لتحالف قوى الشعب العاملة ! ، "كلب الست" سخرية من كلب أم كلثوم الذي كان أهم وأعز من مواطن مصري بائس ، "يا مرحرح" صورة ساخرة للشريحة الملاصقة للسلطة السياسية الناصري من مؤيدي الحل السلمي وتموت في الدبلوماسية وتخاف من الفدائيين ، "كلام المصطبة" ، "القضية" صورة دقيقة ومؤلمة للإرهاب السياسي والابتزاز ومنهج تلفيق القضايا ضد المواطنين الذي تفنن فيه العهد الناصري ، "والقضية يا قضايا/ بالمكايد والوشاية/ دبروها وفصلوها/ بالمقاس لبست قفايا . . / الحكاية إن البلد مش ملك ناسها/ والخلايق في البلد مش مالكة راسها/ والبلد أصلاً بلدنا مش عليلة/ البلد علتها جاية من خرسها .

ومع القصائد فاجأ الناس بنيان فني عمره خمس سنوات ، وبدأت دوائر المثقفين تردد اسم "إمام ـ نجم" بدهشة واستغراب ، وكانت الغرابة والدهشة أن "إمام ـ نجم" يقول ببساطة ما يجب أن يقال وتمامًا في توقيته المطلوب .

وبدأت الحلقات تتجمع أولاً في بيوت من يملكون أجهزة تسجيل ومنديل الأمان من السلطة ، وقبل انتشار أجهزة الترانزستور الرخيصة حاليًا كان امتلاك جهاز تسجيل يلخص على الفور النوعية القادرة ماليًا على هذا الامتلاك مضافًا إليه امتلاك منديل أمان السلطة الذي لم يتوفر إلا للحلقات الثقافية المتاخمة للسلطة والمتعاونة مع

وزير الداخلية! ، وكانت السلطة ـ بواسطة هؤلاء المثقفين ـ تريد أن تشبع حب استطلاعها عن هذا الكيان الفني الذي "قب" من تحت الأرض رغم إرادتها لتكون في موقع يمكنها ـ فيها بعد ـ من السيطرة عليه والخسف به تحت الأرض مرة أخرى عندما ترى أن الوقت قد آن لفعل ذلك. وهذه النوعية الخاصة للبيوت التي كان بإمكانها إقامة سهرة يغني فيها "إمام ـ نجم" حددت بالتالي نوعية الجمهور الذي يتم اختياره للاستماع، والذي لا يمكن أن يكون عمالاً أو فلاحين، أو حتى من المثقفين الشرفاء "ضمير الشعب".

وهكذا استأثر بالفرصة الأولى للاستماع إلى "إمام ـ نجم" جمهور كان في معظم الأحيان يستحق ـ أول من يستحق ـ السياط الملتهبة التي كانت تتهاوى في جلال ودأب من صوت "إمام ـ نجم"، فتقع في مكانها حيث يجب أن تكون، ومع ذلك وبسبب حياة الانفصام بين القول والفعل التي كان يعيشها هذا القطاع من الناس لم يكن بوسعهم أن يتعرفوا على أنفسهم في المرآة ـ أو لعلهم لم يريدوا ذلك ـ فما دام "إمام ـ نجم" يغني مثلاً: "يعيش التنابلة في حي الزمالك. ." ويعيشون هم بالذات في حي آخر كالدقي أو العجوزة أو جاردن سيتي أو مصر الجديدة، فيكون الشعور ـ ولو مؤقتًا ـ بأن السوط ـ لا يطولهم هم ـ بل لابد أنه يعني ـ دائمًا ـ الآخرين! قليل جداً من هذا الجمهور الذي اعترف لنفسه بأنه لا جدوى من الهرب، وأن "إمام ـ نجم"، إنما يقدم المواجهة الصادقة بنقاء تام واستبسال كامل، وعليهم أن يتقبلوا هذه المواجهة بالعرفان، ويدعموها إلى حد الفداء أو يناصبوها العداء، ويبذلوا ما في وسعهم للقضاء عليها!

وانقسمت هذه القلة بالفعل أمام هذا الاختيار إلى قسمين :

1. **المدعمون**: وتدعيمهم معنويًا ـ غالب الأمر ـ بحماس الاستحسان والإجهاش ببكاء اللوم الذاتي والحسرة .
2. **المقوضون**: ومحاولات معنوية ومادية بحملات التهوين من شأن قيمة البنيان الفني الراسخ ـ بل وإنكاره ـ وأفردت الصفحات لمقالات الضرب والهجوم والتشويه ، والاتهامات الشخصية في الصحف والمجلات كافة ـ أبرزها مجهودات الموسيقي سليمان جميل ـ شقيق فايدة كامل زوجة النبوي إسماعيل وزير الداخلية السابق ـ وسيد مكاوي الذي علمه الشيخ إمام العزف على العود!ـ وضرب الحصار الاقتصادي وحرب التجويع حول الشيخ والشاعر ـ رغم أن الحصار كان مضروبًا جاهزًا ، وكان الجوع زميلاً ملازمًا لهما .

وواصل الباقون موقف الاستماع بشغف والتلهف على جمع التسجيلات وحضور دعوات الاستماع مع الهروب المتواصل من مسئولية الدعم أو التقويض .

وكان هؤلاء هم الجمهور الغالب . وحقيقة الأمر أن ذلك الجمهور "المحايد" ساهم بشكل غير مباشر في تقوية جبهة المعادين وكان في واقعه جزءًا لا يتجزأ من هذه الجبهة ، وحين امتدت يد السلطة وأطلقت قرارها بالاعتقال مدى الحياة على "إمام ـ نجم" انفض هذا الجمهور "المحايد الموقف" ليحتفظوا بمواقعهم على وئام مع السلطة ومع المعادين للكيان الفني ، ومتى احتدم الموقف فهم مستعدون دائمًا ـ يا فندم ـ لسحب اعتراضاتهم وشرب دم "إمام ـ نجم" وأكل لحمهما لو صدرت بذلك التعليمات .

والطريف أنه في حملة التشويه التي قامت بها أجهزة وزارة الداخلية اعتمدت الحملة على إبراز المعايرة بأن الشيخ والشاعر من المدخنين الحشيش . . ولكنها اضطرت إلى سحب هذا السلاح حيث كان كبار مسئولي الدولة في السلطة الناصرية والساداتية بعدها من المدخنين للحشيش بالإضافة إلى بعض فناني الدولة .

وبعدها اكتفت الأجهزة بالتركيز على اتهام " إمام ـ نجم " بالشيوعية الأمر الذي استطابه الماركسيون والشيوعيون إذ إنهم بافتقارهم إلى الكوادر الفنية الفذة مع عجزهم عن اتخاذ المواقف الصريحة الشجاعة ذات الأثر الجماهيري الفعال كان اتهام " إمام ـ نجم " بالشيوعية مما يشرفهم ويعطيهم مكسبًا جماهيريًا لم يكن في حسبانهم أو إمكانياتهم، والحقيقة أن " إمام ـ نجم " مثل الشهيدين العاملين خميس وبقرى بسيطين . . معدمين مثل سواد المستضعفين من الشعب المصري المخذول . . برزا من تحت طحن الرحى ليعكسا رؤية النبض الشعبي . هذا النبض الشعبي ـ الذي يدق في عروق وقلب شعب مسلم أساسًا وقبل كل شيء ـ فهل يمكن أن يكون إلا متكونًا من القرآن والمسجد والكتاب عبر 1400سنة كان خلالها الأزهر وعلماؤه ـ معظم الوقت ـ منارة العزة والكرامة لهذه الأمة؟

عندما تفجرت الحركة الطلابية في يناير 1972م كان الشيخ والشاعر خارجين لتوهما من المعتقل بعد قضاء ثلاث سنوات وفوجئا بأغنياتهما شعارات يرفعها الطلاب :

" ما تقوليش ما تعدليش
حرب الشعب وغيرها مفيش !

ووجد " إمام ـ نجم " الفرق الشاسع بين هذه الجمهرة من العمال والفلاحين

والطلبة والمثقفين الصادقين ـ ضمير الشعب المصري ـ وبين تلك الجماعات "الزنخة" التي كانت تحوطه قبل الاعتقال ولا يجد بينهم سوى "اليويو الذي يفرد لسانه ويضمه مثل الأستك وفق المبلغ الذي يتقاضاه ممن لهم مصلحة في فرد أو ضم اللسان . . "، و"الحلاويلا الذي يتمركس بعض الأيام ويتمسلم بعض الأيام، ويصاحب كل الحكام وبـ 16ملة" . و"القواد الفصيح الذي هو على استعداد دائم لبيع وعرض بنات أفكاره تحت الطلب! "

وإذا كانت جمهرة النبض الشعبي الصادق قد وجدت في غناء "إمام ـ نجم" كل ما افتقدته في أجهزة الإعلام فكراً وفنًا وصدقًا ـ على طول العهد الناصري والعهد الساداتي ـ فقد وجد "إمام ـ نجم" في النبض الشعبي المتبدي المتصاعد والمعبر عن نفسه ببطولة فذة رغم البروج المشيدة:

"فرحة هلت واحنا حزانى"

وكما وقف أحمد فؤاد نجم أمام خامته: "اللغة العامة المصرية" يعيد اكتشافها ليصوغ بها رؤيته وقف الشيخ "إمام عيسى" أمام فنية الترتيل القرآني وروافده التابعة "موشحات المدائح النبوية والتسابيح والابتهالات الدينية"، ووجد فيها بئره المليئة يغرف منها بسخاء ويصوغ منها مفهومه لرسالة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، وقد وجد في شعر "أحمد فؤاد نجم" المحور الذي يستطيع أن يتعشق معه بموسيقاه وأدائه فينجدل منهما عمل فني يتمم بعضه البعض في تجانس ووحدة.

والذي يجب أن نعرفه أن "الشيخ إمام" حافظ القرآن بقراءاته جاء من مدرسة "الجمعية الشرعية"، وكان رئيسها الشيخ محمود خطاب السبكي ـ رحمه الله ـ مثلاً

أعلى للشيخ إمام في مرحلة شبابه الأولى، ويذكر الشيخ إمام لشيخه العالم الفاضل أنه صعد منبر الأزهر عند تسلمه شهادة العالمية وصاح: "يا علماء الدين، يا حكام البلاد، أنتم على ضلال حتى تعودوا إلى كتاب الله وسنة رسول الله"، ويقول الشيخ إمام إنهم اتهموه بالجنون بعد أن ألقوا به في سجن المحافظة.

ولا شك أن تلك النظرة "الشرعية" ترسخت في وجدان الشيخ، وأثمرت موقفه الجسور الحازم من كل أشكال الميوعة والتصنيع والضلال في الموسيقى والغناء. وقد حاز "الشيخ إمام" بفضل هذا الموقف الجهادي أسبقية لم يكن لها مثيل في تاريخ بلادنا هي أسبقية كونه أول موسيقي وأول مغن يدخل المعتقل بسبب موسيقاه وغنائه، ولعلنا نجد في إجراء اعتقال "الشيخ إمام" اعترافاً ضمنياً من السلطة ـ الناصرية والساداتية على السواء ـ بأن هذا الرجل قدم لأول مرة وبشكل فعال وبارز موسيقى الرأي وغناء الرأي، ونجد أنه حقق ذلك بكل دماء الموسيقى الشعبية.

إزاء موسيقى وأداء الشيخ إمام لا يمكن للمستمع أن يغفل:

أولاً: أنه "شيخ".

ثانيًا: أنه خارج من فنية الأداء الديني غير متنكر لها بل مطوعًا لها مستغلاً إمكانياتها بما يمكن أن يدعمه في توظيفه الجديد "الغناء السياسي" الذي يعرف أنه استمرار لرسالته الدينية، كما عرفها عند مربيه الشيخ السبكي: "قول المعروف والنهي عن المنكر"، من فوق أعلى المنابر ولو كان ثمن هذا القول الزج في السجون أو الاتهام بالجنون:

"معدودة الخطاوي رايحه ولا جايه"
"ما يلمكشي خوفك ع الدنيا الدنيه"
"قول الكلمة عالي بالصوت البلالي"

"كامش ليه وخايف فرج الشفايف"
"هو العمر واحد ولا العمر ميه؟"

ثالثًا: عنصر الطرب الشجي المؤثر المطعم لألحانه كشيء أساسي وواضح، لكننا نعلم أن عنصر الطرب عند "إمام" ليس كما استخدم عند أم كلثوم وعبد الوهاب أو كما استخدم في تراث "ملا الكاسات وسقاني" كوسيلة مغيبة عن الوعي مخدرة ومثبطة.

إن الشيخ إمام يحتوي عنصر الطرب ويسيطر عليه ويأخذ سره المؤثر الشجي ويستخدمه كأفضل ما يكون متجنبًا سلبياته دون أن ينسف ما يمكن أن يستخرج منه إيجابيته، إنه يتناول عنصر الطرب ليتقرب به من القلب في ألفة، وهو محتفظ للعقل بكامل صحوته ووعيه سواء كان استخدامه دراميًا كما في قطعته "الأرغول"، أو كاريكاتيريًا ساخرًا كما في قطعته "القواد الفصيح".

ويمكن للقارئ أن يتفهم مقصدي بمراجعة الاستماع المركز لألحان الشيخ إمام: "الخط ده خطي"، "دلي الشيكارة"، "الأولة بلدي" ثم "الطنبور" التي يتفجر فيها - هي وموالها: "ورد الجناين" - الوجدان الإسلامي للشيخ إمام خصبًا جياشًا وبرهانًا قاطعًا على إسلامية النبض الشعبي والحمد لله.

ولعل لحن "الطنبور" و"مواله" وأسلوب أدائه الغنائي يكون النموذج الفذ لنجاح "الشيخ إمام" في تطويع وتطوير إمكانية غناء "الشيخ" و"البطانة" من فنية الابتهالات والمدائح النبوية.

* * *

فهرس المحتويات